محمد يونس هاشم



مهاجرون

قصص قصيرة

الطبعة الأولى
٢٠١١-٢٠١٢
2012-2011

الناشر

دار زهور المعرفة والبركة

٣ ش مكة المكرمة الطريق الأبيض أرض اللواء الجيزة

الكتـــــاب : مهـــاجـــرون

المؤلـــــف : محمد يونس هاشم

الناشـــــر : زهور المعرفة والبركة

تليفـــــون : ٠١٠٠٠٧٤١١٦٤

الطبعـــــة : الأولى عام ٢٠١١

المستشار الثقافي والإعلامي : محمد يونس هاشم

مـديـر النـشـر : أسامة عبدالرحمن

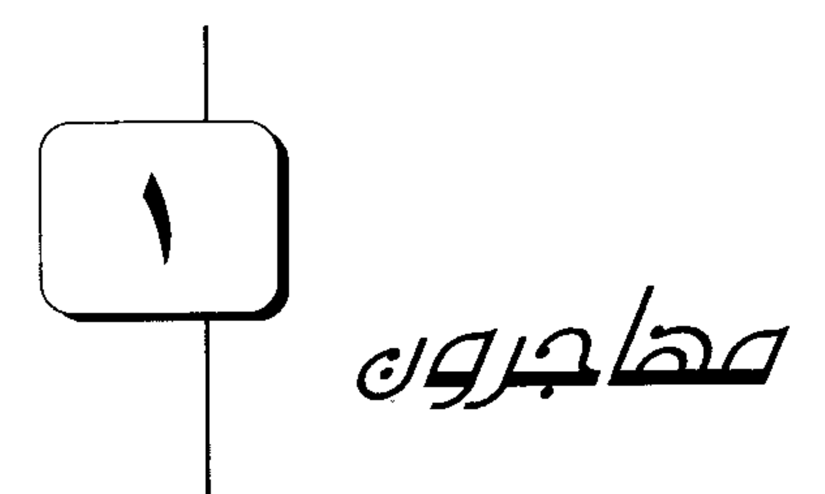
رقـم الإيـداع : ٢٠١١/١٤٢٣٣

الترقـيم الـدولي : 978-977-5172-01-3

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هاشم، محمد يونس
مهاجـرون: قصص قصيرة /
محمد يونس هاشم ـ الجيزة: دار زهور المعرفة والبركة ، ٢٠١١
ص؛ ش
تدمك ٣ ٠١ ٥١٧٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية القصيرة
أ ـ العنوان
٨١٣,٠١



١
مهاجرون



في إحدى ليالي الشتاء القارسة.. كنا نتجمع حول الموقد نتسامر.. يحكي لنا جدي عن أبي زيد الهلالي.. نبحت الكلاب نباحاً متواصلاً.. تدثر جدي بعباءته وخرج.. سيطر عليَّ إحساس بأننا على أعتاب مغامرة غريبة..

عاد جدي بصحبة رجل وامرأة غريبين.. صدمت في هيئة الرجل.. لم يكن كما توقعت أحد أبطال قصص جدي.. كان الرجل هزيلاً شاحب الوجه مهلل الثياب.. كانت المرأة تتدثر بملاءة سرير قديمة.. دخل الرجل وهو يرتجف من البرد ويقول بتوسل :

– شكراً يا سيدي بارك الله فيك.. ربنا لا يلقيك في ضيق.. ربنا ما يحوجك لأحد.. ربنا يبقيك لأولادك .

فور دخول الغريبان سارعت نساء الدار إلى التواري عن العيون. جلس الرجل إلى الموقد.. أخرج يده من تحت إبطيه ووضعهما على النار لمدة طويلة كأنه لا يحس بحرارة اللهب.. لا تكاد يدي تقترب من النار حتى أسارع بإبعادها.. هذا الرجل لا تؤثر فيه النار.. أكيد هذا الرجل هو أبو زيد الهلالي.. لكن أبي زيد الهلالي كان يصفه جدي بأنه أطول من النخل، وزوجته أجمل من القمر، وكان لا يخشى الكلاب .

– أهلاً وسهلاً .

– أهلاً بك يا سيدي.. أنا لا أعرف ماذا أقول لك.. ربنا يبارك لك في مالك وعيالك .

ومال الرجل على يد جدي وحاول تقبيلها.. سحب جدي يده بسرعة.

- استغفر الله.. استغفر الله.. أنا لم أعمل غير الواجب .

- واجبك على عيني يا سيدي .

نادى جدي على نساء البيت قائلاً :

- العشاء يا ولد .

- ربنا يجعله عامر.. ربنا يزيدك من نعيمه .

- هذا شيء بسيط .

- لقد كنا...

- بعد العشاء نتحدث على راحتنا .

أرسلت أمي لي أختي الصغرى.. طلبت مني أن أذهب لدار عمي، وكانت مقابلة لدار جدي الذي كنا نسكن معه نظراً لسفر أبي الدائم فقد كان يعمل مع عمال التراحيل في بناء الجسور وشق الترع .

قرعت باب عمي بشدة .

- من ؟

- أنا محمود ؟

- وماذا تردید یا محمود ؟

- أمي تريد طبق طبيخ .

- وأمك لماذا تريده ؟

- جدي عنده ضيوف .

- جدك.. حاضر.. حاضر .

أعطتني امرأة عمي طبق الطبيخ، وهي تقول :

- هذا كل ما عندنا خذه كله.. قل لجدك إنني أعطيتك كل ما عندنا من طعام .

عدت إلى دار جدي ولم أنس أن أخفي طبق الطبيخ بثيابي عن الضيفين كما أوصتني أمي .

أخذت أمي طبق الطبيخ.. وضعته على الموقد.. بعدما انتهت من تسخين الخبز البارد .

صفق جدي وهو يقول :

- الأكل يا ولد .

أخرجت أمي الصينية النحاسية التي لا تخرج إلا للضيوف.. وضعت فوقها طبق الطبيخ.. الخبز.. قطعة من الجبن القديم. حملت الصينية بسرعة حتى آمن عقاب جدي .

قال جدي للضيفين :

- تفضلا.. تفضلا.. بالهناء والشفاء .

- ربنا يزيدك من فضله.. ربنا يوسع عليك.. ربنا يخلف عليك بالحلال .

- هذا واجب.. لم أعمل إلا الواجب .

استأذن جدي منهما وتركهما ليأكلا. نهض مع جدي أخوي سيد، وعلي، وأولاد المرحوم عمي : سالم وعاطف وحامد .

وقفت أراقب الضيفين.. أقول في نفسي (لماذا لا يكون هذا الرجل هو أبو زيد الهلالي وقد تنكر كعادته.. حكى لنا جدي أنه تخفى مرة في ذي شحاذ) رآني جدي نادى عليَّ.. أمسكني من أذني وأخذ يفركها.. لم يتركها حتى توقدت ناراً.. لم يكن لي أن أصرخ وإلا زاد العقاب.. وربما

وصل إلى حد ربطي إلى نخلة لمدة يوم كامل بلا أكل ولا شرب.. هذا بخلاف الضرب بفرع شجر الرمان الذي يلسع كالنار .

ترك جدي أذني.. الحمد لله أني كتمت صراخي وبكائي .

سأل جدي والدتي عن غطاء للضيفين .

– لا يوجد إلا اللحاف الذي نتغطى به جميعاً، والسجادة التي نفرشها فوق الحصير.. ومفرشك وعباءتك .

– هاتي اللحاف وتغطوا بالسجادة .

– لكن.. لكن الأولاد...

– كفى.. كفى.. نفذي ما أمرتك به.. اصنعي شاياً للضيفين .

أجهز الضيفان على الطعام الذي لم يتبق منه سوى بعض كسر الخبز وجزء صغير من قطعة الجبن .

– كُلا.. كُلا.. هل آتي لكما بمزيد من الطعام ؟

– لا.. شكراً يا سيدي لقد شبعنا.. الحمد لله.. ربنا يزيدك من نعيمه.. ربنا لا يضيمك أبداً، ولا يُشْمت فيك عدوٌ ولا حبيب .

– الشاي يا ولد .

صبت أمي ثلاثة أكواب.. حملتُها على صينية الشاي التي أخرجتها أمي من سحارتها ومسحتها بملابسها.. رائحة الشاي ملأت أنفي.. سال لها لعابي.. تمنيت أن يرفض أحد الضيفين الشاي.. خاب ظني فقد ارتشفا الشاي حتى آخر قطرة .

هجم أولاد عمي على ما تبقى في الأكواب من تفل يستخرجونه بأصابعهم ثم يلعقونها بنهم.. نهرتهم جدتي بصوت مكتوم، ولعنت أمهما التي تركتهما وعادت إلى أهلها بعد موت عمي.. ثم قال لأمي :

– صبّي على تفل البراد ماءً.. اصنعي لهؤلاء الشياطين شاياً .

هللنا من الفرح.. انتظرنا الشاي بصبر نافد .

– يا سيدي نحن من بور سعيد لم نعرف بلداً سواها.. لم نفكر يوماً لتركها.. هاجمنا معسكرات الإنجليز، وصبرنا على اعتداءاتهم .

– كان أخي هارون أحد الفدائيين الذين كانوا يحاربون الإنجليز في القنال .

– وفي العدوان الثلاثي تصدينا بصدورنا للغزاة بعدما انسحب الجيش من سيناء ووزعوا علينا أسلحته !

– والحمد لله، انتصرنا، وخرج المعتدين .

– وفي النكسة رأينا أياماً سوداء، وراح منا خلق كثير .

– استشهد ابني في هذه الحرب، ولم نعثر له على جثة.. كان أعز الأبناء .

وهنا اغرورقت عيون جدي.. لم أكن أرى دموع جدي إلا عن ذكر عمي رحمه الله .

– لكن في الأيام الأخيرة استباح الصهاينة سماءنا.. لم يبقوا في بلادنا حجراً على حجر .

– ضربونا هنا في نجع حمادي.. سمعنا أنهم ضربوا " أبو زعبل ".. " بحر البقر " و..

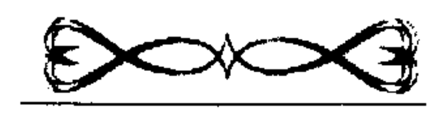
– ورفضنا ترك بلادنا حتى لو متنا تحت أنقاضها.. قالوا لنا : نحن لا نستطيع حمايتكم ولابد أن تهاجروا إلى الداخل.. تركنا بيوتنا وأرضنا.. كل واحد راح يبحث له عن قريب، أو صديق يؤويه .

وهنا انفجر الرجل باكياً، وأخفت زوجته وجهها بين يديها وراحت تبكي بكاء مكتوماً.. ربت جدي على كتف الضيف وهدأ من روعه .

- البيت بيتكم.. أنتم أهل، وأصحاب بيت.. إن لم تسعكم الأرض حملناكم على رءوسنا .

- نحن لنا قريب هنا في نجع حمادي سنعيش عنده.. غداً سوف نبحث عنه .

لا أدري لماذا تذكرت هذه الحكاية القديمة، عندما أخبرني من يجلس بجواري في المركب الذي تتلاعب به الأمواج العنيفة إنه من بورسعيد .



٢

قصة خطاب



أمسك سامي الخطاب الذي حمله إليه البريد اليوم.. نظر في اسم المرسل (خالد !!!).. فتح الخطاب وبدأ يقرأ :

" أخي العزيز / سامي

تحية طيبة وبعد :

لا أعرف من أين أبدأ، ولا أي شيء أقول.. أريد أن أقول كلاماً كثيراً في وقت واحد.. أحار بأي موضوع أبدأ.. كل المواضيع مهمة.. أعلم أنك ستدهش عندما تتسلم خطابي فزمن ذهابي إليك أسرع بكثير من زمن وصول الخطاب.. الحقيقة أني خفت من مواجهتك فتسترت وراء هذا الخطاب.. ترددت كثيراً قبل أن أكتب لك هذا الخطاب.. كنت خائفاً أثناء كتابته.. فزعت كذا مرة عندما قُرِع الباب.. خفت أن تأتي وتقرأ ما سطرته لك.. طمأنت نفسي بأنك منذ سنين لم تطأ قدمك البيت الذي تربيت فيه، وعشت طفولتك وصباك وشبابك.. شاهدتني أمي وأنا أكتب لك حسبتني أذاكر.. خفت أن تعرف أمر خطابي لك فطلبت منها كوب شاي.. صرخت في وجهي : " شاي.. شاي !! ألم أصنع لك شاياً في الصباح.. لقد نفد الشاي حتى تستريح.. " أمسكت أعصابي كالعادة وحمدت الله أنها لم تعرف أمر الخطاب.. دخلت أختك سهير التي تركتَها تحبو.. أخذت تنظر في الخطاب.. أ..خَ.. يَ.. أخي . ال.. ع.. زَ.. يَ... وقبل أن تقرأ اسمك دفعتها عني فخرجت إلى أمي وهي تقول :

" - خالد لا يذاكر إنه يكتب خطاباً .

– أكيد لواحدة زميلته في الجامعة.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيع عمله . "

أخذت أوراقي وقلمي وصعدت إلى السطح ؛ حتى أستطيع أن أكتب لك هذا الخطاب.. هموم كثيرة كما ترى، لكنها بسيطة تعودنا عليها.. أنت أكبر همومي.. هل أنت سامي الذي كان مثلي الأعلى ؟!.. هل أنت سامي الذي كانت أقواله هي مصدر علمي ومعرفتي ؟!.. مازلت أذكر كلامك الذي لم أفهم معناه إلا في وقت متأخر : " كل الناس يشتركون في كونهم عبيداً، ولكنهم يختلفون في المعبود . فهذا عبد للمال، وآخر عبد للسلطان، وثالث عبد للشهرة، ورابع عبد للنساء... "

لقد خطفتك معبوداتك منّا يا سامي.. عندما أسمع أخبارك أكاد أجن.. هل تتاجر في الممنوعات يا سامي ؟!.. لا أكاد أصدق.. قد أغفر لك زواجك بسوزان.. لكن لن أغفر لك أبداً أن تتاجر في صحة الناس وأمنهم ومعاشهم.. أبوك يا سامي ما زال يعمل " مُبيض محارة " رغم تقدم السن به.. كيف يستريح وهو مصدر رزقنا الوحيد.. مصدر رزقنا الوحيد يا سامي بيه.. سمعت أنك اشتريت سيارة جديدة بمائتي ألف جنيه.. سيارة بمائتي ألف جنيه ونحن في حاجة إلى مائة جنية منها فقط كي يدخل اللحم بيتنا بعد هجر طويل.. مائة جنية منها فقط لأشتري كتباً بدلاً من استعارتها من زملائي والسهر طول الليل لتلخيصها.. لا تظن أني أكتب لك طلباً لمساعدتك.. نحن بحمد الله مستورين.. لسنا في حاجة لأموالك.. أتمنى أن تدرك أن ما اشتريته لكي تتنزه به يكفي لحياة أسرة لعدة أجيال.. هل هذه هي الاشتراكية التي كنت تتغنى بها ؟!.. هل الاشتراكية أن تسافر كل عام لتصطاف في أوروبا، ونحن نخشى أن يمرض أحدنا ولا نجد له ثمن الطبيب والدواء.. لكن الحمد لله على كل حال .

قبل أن أنسى لقد زفت زينب جارتنا إلى شاب تقي.. كان فرحاً متواضعاً ولكن الناس كانت سعيدة.. أتذكر زينب ؟ أم تراك نسيتها كما نسيت كل شيء.. زينب التي أحبتك ورفضت الخُطَّاب من أجلك.. زينب التي ذبحت حبها قرباناً لطموحك.. زينب عاشت كما عشنا نحن، ومت أنت .

سامي أنا مضطر إلى إنهاء الخطاب فقد أكلت الشمس رأسي . ولم أعد أتحمل مواصلة الحديث إليك، وتذكر أعمالك ومواقفك ."

أخوك

خالد

تكدر وجه سامي.. ألقى برأسه للوراء، وراح يفكر.. نادت عليه زوجته.. لم يرد.. جاءت لتنهره.. وجدت الخطاب.. قرأته.. قالت بسخرية :

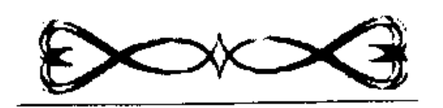
– ما هذا الكلام الفارغ.. إن كان أخوك محتاجاً لمساعدة لماذا هذا اللف والدوران.. إنسان حقود.. حقود.. كان عليه أن...

– كفى.. كفى .

– أحزين أنت على حبيبة القلب التي تزوجت ؟!.. أم على أخيك المتسول ؟ أم على...

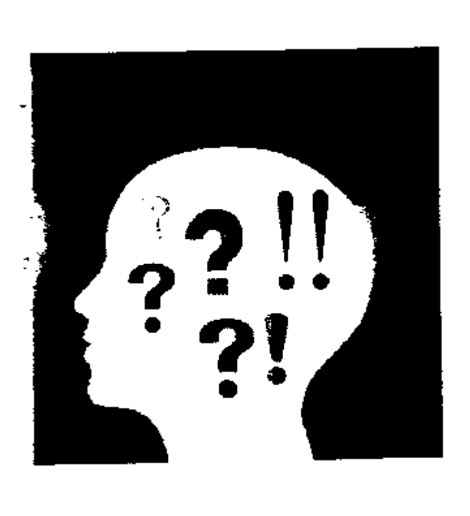
– كفى هراء.. اخرجي.. اخرجي .

أحس سامي أنه أساء لزوجته.. اعتذر لها.. قبّل رأسها ويديها.. طلب منها الصفح.. مزق خطاب أخيه ليثبت إخلاصه لها .



٣

علامات تعجب





دخل شاب نحيل متوسط الحال المكتبة في الثامنة بالضبط .

- صباح الخير .

رد الجميع .

- صباح الخير .

قال عم أحمد وهو رجل في الخمسين من عمره وقور، رغم أنه بسيط الحال :

- هذا حسام الذي سيعمل معنا ابتداءً من اليوم .

تعالت الأصوات .

- أهلاً وسهلاً .

- شعر حسام بارتياح من هذا الاستقبال الحافل.. الابتسامات تعلو كل الوجوه.. كلمات الترحيب تنطق بها كل شفاة .

قال عم أحمد : إن شاء الله سوف تسعد بالعمل معنا.. العمل هنا سهل يسير.. سوف تتعود عليه بسرعة .

زال خوف حسام من طبيعة العمل المكلف به.. كان يخشى تعقيد العمل، والعودة إلى الباطلة مرة أخرى.. بلا عمل.. بلا قيمة.. بلا حياة .

قالت سهام عاملة الخزينة لحسام :

حضرتك، في أي كلية تخرجت ؟

- أن حاصل على ليسانس آداب .

اكتفى حسام بهذه الإجابة لأنها بالنسبة له تعطي نوعاً من التعمية المفيدة.. ترفع من شأنه أمام محدثه لانصراف ذهنه إلى احتمال أن يكون خريج أحد أقسام الكلية البراقة.. قسم اللغة الإنجليزية.. الفرنسية.. ألمانية.. لذا كان حسام يكتفي بذكر اسم الكلية ولا يذكر اسم القسم . لكن سهام عاجلته قائلة :

- في أي الأقسام تخرجت ؟

قال حسام بصوت منخفض :

- قسم التاريخ .

نطق حسام باسم القسم وهو يخشى أن يحدث له ما حدث مع كل عمل يتقدم له، حتى أبغض هذا القسم، وأبغض التاريخ وكتبه . رغم أنه كان يعشق هذا القسم، وفضّله على كثير من أقسام الكلية الأخرى التي كان مجموعه يؤهله لدخول أي منها .

في هذا القسم أمضى أربع سنوات هي أمتع سنوات عمره.. محاضرات.. مناقشات.. أبحاث.. المكتبة المركزية.. القاعة الشرقية التي صار جزءاً منها .

قالت سحر : سوف تسعد بالعمل معنا، فنحن هنا أسرة واحدة .

ابتسم حسام وهو يومئ برأسه إيماء الرضا .

– (الحمد لله.. كدت أيأس من الحصول على عمل، بل يئست فعلاً.. لكن الحمد لله.. وجدت عملاً.. عملاً لذيذاً مع زملاء ودودين.. ما أجمل أن يعمل الإنسان مع زملاء يملأ الحب والاحترام قلوبهم.. أنا سعيد حقاً .)

سادت فترة صمت.. حاول كل واحد الانشغال بشيء.. لم يجد حسام ما يعمله .

مالت سحر على سهام وشرعت تحدثها بصوت غير مسموع .

مال حسام على عم أحم وسأله بصوت [illegible] عن طبيعة عمله.. المشترين.. متى يكثر مجيئهم، ومتى يقل.. أكثر الكتب مبيعاً.. عم أحمد يجيبه إجابات مختصرة يعقبها دائماً بقوله :

– سوف ترى ذلك بنفسك لا تتعجل .

أبدى حسام سعادته لعم أحمد بالعمل في مكتبة لبيع الكتب ؛ فهو من مدمني القراءة والاطلاع .

في الثامنة والنصف دخل رجل في الثلاثين من عمره، مهندم الثياب، مرجل الشعر بطريقة ملفتة.. همَّ حسام في استعادة مهام العمل المكلف به (أدون أسماء الكتاب المبيعة.. ثمن كتاب.. أجمع ثمن الكتب...) فوجئ بالرجل يحيي الجميع بأسمائهم .

– صباح الخير يا عم أحمد.. صباح الخير يا سهام.. صباح الخير يا سحر .

رد الجميع : صباح الخير يا فريد .

قالت سحر مازحة : لماذا جئت مبكراً اليوم على غير عادتك ! !

قال فريد وقد تظاهر بالجدية : مبكراً ! كيف كم الساعة الآن ؟

قالت سهام : الثامنة والنصف .

قال فريد وهو مازال يتظاهر بالجدية :

- الثامنة والنصف !.. ميعادي الساعة التاسعة !

ثم خرج.. ضج الكل بالضحك ما عدا حسام .

عاد فريد " يهرش " رأسه ويقول :

- لا بأس من الحضور مبكراً، فالأُجَرِّب هذا الأمر .

زادت الضحكات.. أطلقت سحر ضحكة نزلت كالصاعقة على حسام.. لم يخطر بباله أن فتاة أو امرأة تضحك مثل هذه الضحكة في محل عملها فضلاً عن مكتبة مليئة بالكتب الدينية، والتاريخية، والأدبية..

تنبهت سهام إلى ذهول حسام.. خشيت تطور المزاح كالعادة.. سارعت تنبه فريداً لهذا الأمر قائلة :

- فريد.. نسينا أن نعرفك بالزميل الجديد الأستاذ حسام .

التفت فريد إلى حسام وقد ارتدى قناع الجد قال وهو يصافحه :

- أهلاً الأستاذ حسام.. لا تؤاخذني.. أعذرني لعدم انتباهي لوجودك.

- لم يحدث شيء.. لا تنزعج .

- لماذا لم تنبهوني عند خولي .

قالت سحر : أنت لم تترك لنا أي فرصة.. على العموم الأستاذ حسام لم يعد غريباً ؛ لقد أصبح واحداً منَّا .

قال عم أحمد : حسام سوف يساعدك في كتابة " الفواتير " .

قال فريد : هذا شيء يسعدني ويشرف...

قطع دخول امرأة كلام فريد.. كانت امرأة في منتصف العقد الرابع من عمرها.. بدينة بعض الشيء.. على قدر من الجمال.. هذا ما يبدو بعد المساحيق الكثيرة التي تغطي وجهها .

دخلت المرأة بسرعة وهي تقول :

- آسفة، يا جماعة، على التأخير.. البيه زوجي استيقظ متأخراً.. لم يفرغ من إفطاره إلا في الساعة السابعة والنصف .

وقبل أن تستطرد في حديثها وذكر مزيد من تفاصيل حياتها وحياة زوجها وأولادها كالعادة عاجلها فريد قائلاً : كل يوم تستقبلينا بهذا الموشح.. يا سيدتي ارحمينا من هذا الموشح اليوم، ليس من أجلنا، إنما من أجل زميلنا الجديد، وأشار إلى حسام .

تنبهت أميمة إلى وجود حسام فقالت بخجل : لا تؤاخذني، يا أستاذ.. لم أرك.. أهلاً وسهلاً.. لكن العيب عيب الجماعة الذين لم ينبهوني فور دخولي .

قال فريد مازحاً : أنت لم تعطنا فرصة حتى نرد تحية الصباح .

جذبت أميمة كرسيًا وجلست بجوار سحر وهي تقول : صوتك ارتفع اليوم يا فريد.. لك حق لقد زدتم واحداً.. أصبحت رأسكم برءوسنا .

ضحك الجميع.. اكتفى حسام بالابتسام.. لا يفهم شيئاً مما يجري.. هاله الجو الصاخب الذي لا يسمع فيه إلا المزاح والضحكات .

قالت سحر : الأستاذ حسام يبدو عليه أنه طيب.. سوف ينضم لحزب النساء.. أليس كذلك يا أستاذ حسام ؟

لا يدري حسام ماذا يقول.. أخجله كلام سحر والطريقة التي تتحدث بها.. أومأ برأسه موافقاً بحركة لا إرادية.. تمتمت شفتاه : تمام.. تمام .

صاح فريد قائلاً : ما هذا يا عم حسام.. من أول يوم استطعن الضحك عليك، وكسبك لصالحهن.. لقد استبشرنا بك خيراً، وقلنا : ربنا عوضنا برجل يأخذ لنا حقوقنا منهن .

ضج المكان بالضحك . أما حسام فلم يدر ماذا يفعل طأطأ رأسه - (هل هذا المكان مناسب لعلمك، وطموحك، وأخلاقك.. هل أترك العمل، وأعود إلى البطالة مرة ثانية..)

تنبه عم أحمد إلى إطراق حسام فقال له : إياك أن تغضب من فريد إنه دائم المزاح.. لا يعرف الجد أبداً .

في أثناء كلام عم أحمد، مالت أميمة على سحر وهمست في إذنها : يبدو أنه جد .

- هذا ما كنت أتمناه .

وأعقبت كلامها بتنهيدة طويلة.. تنبهت لها سهام فمالت عليهما قائلة : اتركا الولد في حاله.. الولد يبدو عليه الطيبة، والسذاجة.

رأى فريد الثلاثة وهن يتهامسن فقال بصوت عالٍ : ألا تكففن أبداً عن الهمس و...

ويبدو أنه تنبه إلى وجود حسام فأمسك عن مواصلة كلامه .

كان حسام في غاية العجب من هذه المكتبة الخالية من المشترين، المليئة بالموظفين .

أخذ حسام يتجول في المكتبة.. يقرأ عناوين الكتب (" حتمية الحل الاشتراكي ".. " الإسلام هو الحل ".. " المجانية والتعليم ".. " أمة في خطر ".. " حرب الأيام الستة ".. " حرب الساعات الست ".. " زعماء الإصلاح ".. "حوار مع المتطرفين ".. "المخدرات والمسكرات ".. " ألف ليلة وليلة ".. " تفسير الأحلام".. " اعرف برجك ".. " حياة الفنانات الخاصة "...)

أحس بصداع يحطم رأسه .

بعد شهر من العمل امتلأت رأسه بعلامات الاستفهام، والتعجب،

لكن عندما تسلم راتبه عرف سر كل ما يجري حوله، واختفت كل علامات التعجب والاستفهام .



٤

آخر أيام الجامعة



(اليوم هو آخر يوم لنا في الكلية لابد أن أتخذ قراراً مهما كانت النتيجة كفى طيلة هذه السنين تردداً.. ولكن ماذا تقول لها ؟.. أقول لها.. أقول لها.. أقول لها أن نظراتها الرقيقة قد بلغت الرسالة، وأني قد استطعت فكَّ رموزها..)

– بعد المحاضرة سنذهب إلى حديقة الأندلس .

زميل له يهمس في أذن من تجلس بجانبه .

(ثم أخبرها بأني أحب فيها طهرها وعفافها والإخلاص في..)

–... الكلمة مسئولية..

صوت الأستاذ يعنف طالباً أجاب دون تفكير .

(الوقت يمر لابد من اتخاذ قرار حاسم اليوم.. لماذا أنت قلق وحائر ؟ إن الموضوع لا يهمك هي التي أرسلت إليك نظراتها من أول عام، وأنت لم تخطُ نحوها أية خطوة.. هل هذا جزاء حبها لي، وإخلاصها لي طيلة هذه السنين ؟ ألم تلقِ في نهر حياتي الراكد وردة فحركته، وجمَّلته ؟..)

– لا أدري كيف أستطيع أن أعيش دون أن أراك بعد ذلك .

(لابد أن أصنع شيئاً، آه.. أكتب لها خطاباً.. وماذا تقول فيه ؟.. أكتب فيه، أكتب فيه أني أحِـ.. لا لا، لن تستطيع هذا..)

نظر إليها ما زالت كعادتها تنظر إليه، لكن نظراتها لم تعد رقيقة كعادتها بل أصبحت سهاماً موجهة، إنها لم تغض طرفها عندما نظر إليها، إنها مازالت ترنو إليه .

(نظراتها تستعطفني، ترجوني أن أرحم حبها، سأكلمها بعد المحاضرة، هذا هو قراري النهائي، سأقول لها إني أحبها، وأني لا أستطيع أن أعيش بدونها..)

- أ تتخيل أني كدت أموت اليوم في الأتوبيس ؟ لقد كان غاية في الازدحام، حتى أني لم أستطع النزول في محطة الجامعة،ونزلت في المحطة التالية .

- هانت هذا آخر يوم لنا في الجامعة .

- لكنه ليس آخر يوم لنا مع الأتوبيس .

هذا الحديث أثار شجونه .

- أتمنى لكم التوفيق في حياتكم العملية .

- إن الذين تخرجوا قبلنا بسنوات طويلة لم يعملوا حتى الآن، أنعمل نحن ؟!

- لم يعد للشهادات قيمة في هذا الزمان .

- سأبقى في بيتي حتى يأتيني ابن الحلال .

- أنا سأسافر للخارج، وأترك هذا البلد .

- أما أنا سأعمل مع أبي في معرض السيارات .

أحس بانقباض شديد، وضاق صدره .

(لا أستطيع أن أصنع شيئاً، الكلمة مسئولية)

أراد أن ينظر إليها، ثم تراجع، لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إليها، مازالت ترنو إليه، لم تحل أجسام الطلاب من رؤيتها، قلبه يتمزق حزناً عليها، أوشك المدرج على الفراغ، خاف المواجهة، فخرج مسرعاً قبل :

(أن نصبح أنا وهي وجهاً لوجه)

حاول التشاغل بالحديث مع أصدقائه عن التفكير فيها لكنه كان يحس أنه :

(جبان.. ضحية.. رومانسي في زمن الواقعية)

ودع أصدقاءه، على محطة الأتوبيس فوجئ بوجودها، حاول أن يحيص عن نظراتها، ولكنه لم يستطع .

(نظراتها كأشعة شمس الصيف وقت الهجير، وقلبي كحب الغمام في الزمهرير، لكن ما هذا البريق الذي في عينيها ؟!)

وإذا بدمعتين ساخنتين تنحدران من عينيها أحرقتا قلبه ؛ وسبحت عيناه في لجة من الألم .

جاء الأتوبيس مزدحماً كعادته، دون أن يدري هرول نحوه، ووضع قدمه فيه، أحس بسعادة أن وجد لقدمه موضعاً، نشّفت دموعَه الأجسامُ المتلاصقة .

- إني لم أدفعك .

- أمامك الولد الصغير .

- وراءك سيدة عجوز .

- التذكرة بجنيه نصف .

تذكرها، توقف .

- أصاعد أنت أم نازل ؟!

- بل صاعد .

- افتحوا الشبابيك ؛ كدنا نختنق .

صراخ.. صراخ.. صراخ.. صراخ غطى على كل شيء.. على كل شيء .





٥

ماذا لو؟

جلس أسامة في الظلام ووضع قدميه على المائدة التي أمامه، أخذ نفساً عميقاً، سرت في جسده قشعريرة دافئة .

(اليوم هو يوم الانتقام، هذا اليوم الذي انتظرته طويلاً.. ياااه أيام طوال، أيام من جحيم، أيام كقطع الليل المظلم وأنا أسير على صراط أدق من الشعرة، وأحد من السيف، ولكني وصلت للنهاية، وصلت إلى بر الأمان، وسألقي بها إلى الجحيم، سأجعلها تعيش في جحيم أبدي، هذا هو الثمن الوحيد الذي أرتضيه ولن أقبل سواه، سألقي في وجهها بالحقيقة المرة، سأشعل فيها النار، سأحيل حياتها الهانئة إلى دمار .)

نادى عليها كانت تتابع المسلسل العربي.

- ماذا تريد ؟

قال بلهجة آمرة

- اجلسي .

- لماذا تجلس في الظلام هكذا، و...

- قلت لك اجلسي..اجلسي .

- ماذا حدث ؟ هذه أول مرة تكلمني فيها بهذه الطريقة .

همت أن تقترب منه .

- مكانك.. لا تنطقي إلا إذا أمرتك بالكلام .

أخرج سيجارة بهدوء شديد، وأشعلها، وأخذ منها نفسا طويلاً .

- قل لي ماذا حدث ؟

صاح فيها وهو يلطم المنضدة بقبضة يده :

- قلت لك اسكتي.. اسكتي .

(لأول مرة أراه بهذه الثورة، لابد أن أمراً عظيماً قد حدث)

أخذ نفساً طويلاً آخر ثم نفثه في وجهها كأنه فحيح ثعبان، مخايل وجهه، وتقطيب جبينه، وقدْح عينيه، أخرسها .

(من المؤكد أن حدثاً كبيراً قد وقع، الضرائب، صدم شخصاً بسيارته... لكن ما ذنبي أنا)

نظر إليها نظرة فهد أرقط في ليل أبهم، وقال وهو يجز على أنيابه:

- سأبوح لك بسر طويت عليه صدري أياماً طوال، وأحذرك للمرة الثانية أو الثالثة أن تقاطعيني .

أشعل سيجارة أخرى رغم أن السيجارة الأولى لم يحترق سوى نصفها.

كنت قبل أن أعرفك إنساناً آخر، إنسان له طموحاته وأحلامه وأمانيه، كنت أحلم أن أكون أديباً كبيراً يتغنى الناس بأشعاره، دخلت

كلية الآداب رغم أني حصلت في الثانوية العامة على مجموع (٩٧ ٪) وكان يمكن أن ألتحق بكلية الهندسة أو غيرها من كليات القمة، والتقينا وأحببتك .

وهنا تنهد تنهيدة عميقة ارتعش لها جسده ثم أكمل :

- أحببتك حب الهجير لنسمة هواء، حب صحراء الصيف لنقطة ماء، كانت حياتي قبلك كنبات الصبار، وحطب النار، لم أذكر أن أحدا قبَّلني، أو أحضر لي لعبة، أو قطعة حلوى ، وجدت في هذه الحياة كآدم بلا طفولة ولا صبا، وفي هذا الحرمان طاقت نفسي للحب فتطلعت للسماء فرأيتك سحابة رقيقة وبكل ما في قلبي من ظمأ للحب والحنان أحببتك .

همت أن تقترب منه، تحضنه، تقبله وهي تقول :

- وأنا أيضا أحـ....

- اسكتي.. اسكتي.. لا تتكلمي، لم أنته من كلامي بعد .

أغمض عينيه وأخذ أنفاساً قصيرة هادئة ثم أكمل قائلاً :

- أحببتك حباً لم تعرف الدنيا له مثلاً، ويا ليتني...

وهنا كادت السيجارة تحرق إصبعيه فرماها بسرعة، وأشعل غيرها .

- ليتني ما عرفتك ليتني ما أحببتك ، لم يكن لواحد مثلي أن يحب مثلك، شتان ما بيننا، لكنه القلب اللعين، والعواطف العمياء، بدأت تملين عليَّ شروطك أريد..أريد..أريد، أريد شقة فاخرة مثل ابنة عمتي، أريد أثاثاً وثيراً كابنة خالتي، أريد سيارة فارهة كسيارة فلانة صديقتي،

أريد.. أريد، ..أريد وكنت أحبك، مأساتي أني أحبك، فعندما رفضتني إلا بهذه الشروط، وكنت أحبك، قررت ألا تكوني لغيري، واشتعلت في الرغبة في أن أحصل عليك بأية طريقة، نصحني الأصدقاء بالسفر " ففي السفر خمس فوائد " لكني لم أر فيه إلا فائدة واحدة.. عملت كل شيء، وضحيت بكل شيء، وعدت بعدما ملأت جيوبي، وحقائبي . واشتريت الشقة كما طلبت ، أنا الذي لم يحلم إلا بعش صغير اضطر لتجهيز شقة بمائتي ألف جنيه، وأثثها بمثلها أيضاً، كم أنا عنيد، كيف أستطيع فعل هذا ؟ كيف يطاوعني قلبي أن أبدد كل هذه الأموال في أشياء معظمها تافه عديم الجدوى ؟! نعم كنت أحلم بالغنى لا لأشتري التفاهات بالآلاف بل ليعينني على مواصلة الأبحاث، والمؤلفات . لكني صبرت، وصبرت، وصبرت، وطلبت أن تزفي كما زفت ابنة خالتك، وكنت أكره أن أتأبط عروسي وأسير خلف الراقصات، بين زغاريد النساء، وجنون الأغنيات، ورضخت لطلباتك، وتحولت الشهرة والمجد الذي كنت أتمناه إلى تشهير وسخف كنت أخشاه، كنت أعزي نفسي بأن يوم الانتقام قد حل، فكرت أن يكون ليلة الزفاف، وأنت في قمة سعادتك، ترتدين فستان الزفاف الأبيض الذي كلفني ثلاثين ألفاً من الجنيهات، كنت أتمنى أن أجعله أسود كسنين العذاب التي عشتها، لكني كتمت الغيظ في صدري فلم أصل إلى مرادي منك بعد، ولكي أصل إلى مرادي كان علي أن أمثل دور الزوج المتيم ؛ فسقيتك الغزل أقداحاً حتى ثملت، وأنا الذي طفحت المرارة حتى سدت حلقي، واستمر مسلسل التنازلات بعد الزواج فكل يوم نسهر في ملهى مختلف، وألقي بأموالي التي دفعت فيها عمري وأخلاقي وأتيت

بها من الجحيم لألقي بها في الجحيم، كنت أخشى أن أتلفظ بلفظة تهدم ما بنيت لذلك كنت حريصاً على المحافظة على هدوئي، ونجحت في تمثيل دوري تماماً فازددت تعلقاً بي وحباً .

ثم قال بلهجة خطابية :

- وجاء اليوم الذي أخبرك فيه أنك لا تساوين بالنسبة لي أكثر من الأموال التي دفعتها فيك، ولا أبالي فأكثر هذه الأموال قد اكتسبتها من حرام وأنفقتها في حرام، فكأني نثرتها على راقصة في ملهى في لحظة نشوة .

ومع آخر كلمة أجهشت بالبكاء، قالت بصوت متهدج :

- لا أكاد أصدق.. مستحيل.. أ هذا ؟!.. أ هذا معقول ؟!!.. هل أنت؟!.. أنت أسامة الذي أحببته ؟!!.. مستحيل.. مستحيل.

بدأ يشعر بسعادة ؛ أحس أنه نجح، وأن النتيجة جاءت وفق ما قدر.

(ها هي تشرب من بحر العذاب الذي طالما أغرقني، ها هي تأكل من شجرة الزقوم التي ما عرفت طعاماً غيرها منذ أن عرفتها)

سيل دمعها روّى صحراء قلبه ؛ فأنبت فيه - يا للعجب - أزهار الرحمة، ولهيب وجنتيها أحرق هشيم الانتقام ؛ وأشعل في دياجير نفسه شموع الوئام .

(... لكن أبداً لن أرحمها، لابد أن أعرف لماذا صنعت بي كل هذا ؟ لماذا اشترطت عليَّ كل هذه الشروط ؟)

بعدما نفدت دموعها انفجرت فيه صارخة :

- لماذا صنعت هذا بي ؟ ماذا جنيت حتى تفعل هذا ؟ لماذا لم تخبرني بهذا في حينه ؟.. حرام.. حرام.. أنت ظالم.. ظالم.. طلقني.. طلقني.. لن أعيش معك دقيقة واحدة بعد الآن.. أرجوك طلقني.. طلقني .

قامت بسرعة، ودخلت حجرتها، دفنت وجهها في الوسادة . تبعها، سألها بصوت عنيف ممزوج بلهجة حب أثارتها كلمة الطلاق :

- أريد أن أسألك سؤالاً واحداً.. سؤالاً واحداً فقط، وبعد ذلك أنت وما تشائين .

رفعت رأسها وقالت بصوت متهدج :

- ما هو ؟

- لماذا فعلت كل هذا بي ؟

- ماذا فعلت ؟ !

- لماذا اشترطي كل هذه الشروط على الرغم من أني كنت أحس أنك تحبينني، لكنك لم تتنازلي عن شرط واحد منها !

- هم الذين قالوا لي هذا .

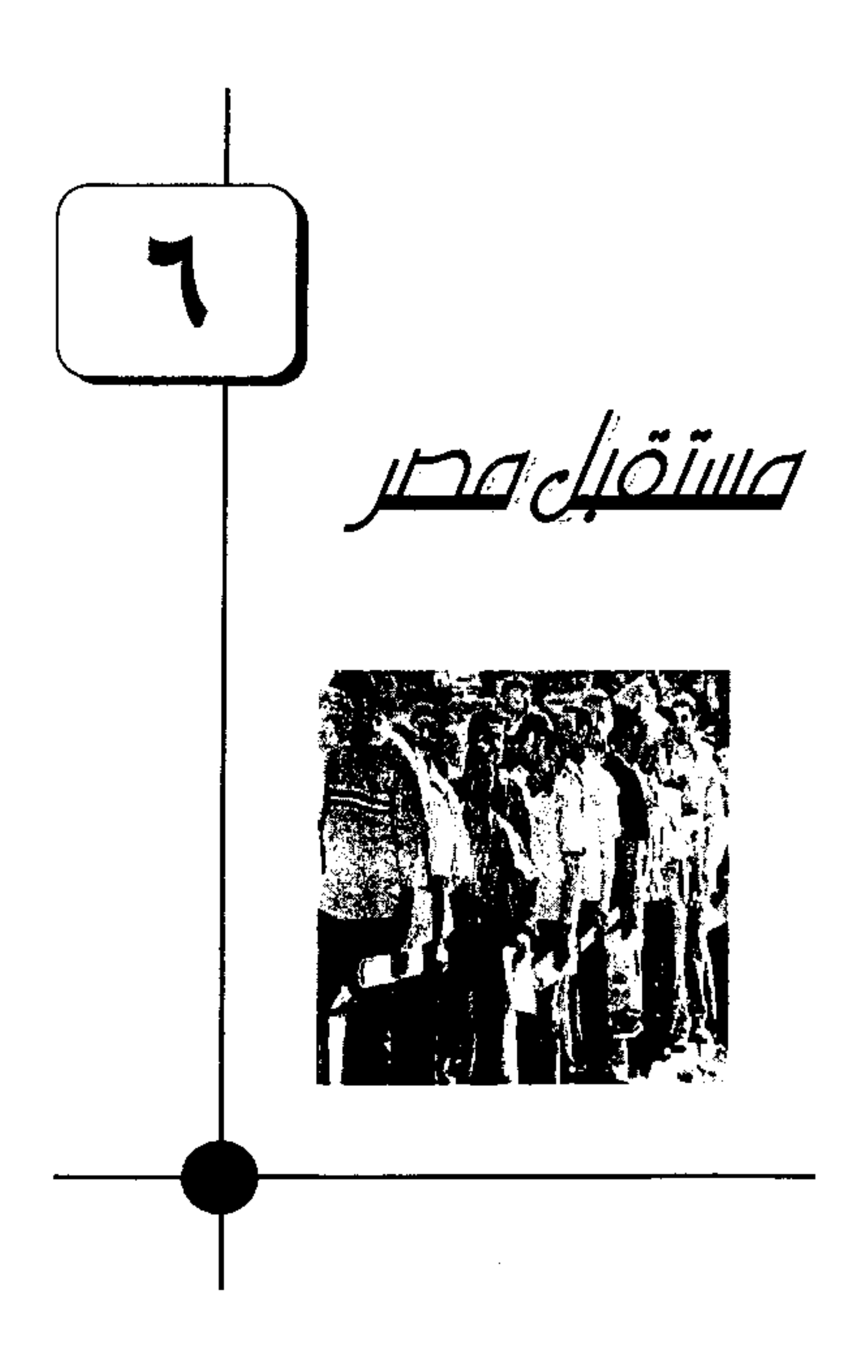
- مَن ؟

- أصدقائي، وأقاربي كلهم أكدوا لي أن هذه الشروط هي التي ستثبت حبك لي ورغبك الأكيدة في الزواج، وأن التخلي عن أي شرط معناه أنك تلعب بي، أو أني غير ذات قيمة كبيرة عندك، أقسم لك أن هذا ما حدث، لم أكن موافقة ؛ فأنا أحبك، لكن تأكيد والدتي الدائم لي، وفسخ خطوبة أختي الكبرى أكدا لي أن هذه الأشياء هي التي تثبت حبك لي .

صِدْقُ كلامها ودفئ نبرات صوتها أذابا ضباب الشك الكثيف، وبريق عينيها آسى جروح قلبه الشفيف .

اقترب منها، همت بالابتعاد، لكنه ضمها إلى صدره، استراحت على نغمات قلبه، سرت قشعريرة في جسده، أغتسل في نهر الندم، وأطفأت جمرة عينيه دموع الفرح، أمسك برأسها بين يديه، رأت دموعه لأول مرة منذ عرفته، كانت ابتسامتها نهاية لليلة ليلاء وبداية لحياة الهناء .





٦

مستقبل مصر

في أحد البنوك كانت هناك مجموعة كبيرة من الشباب يجلسون في صالة كبيرة انتظاراً لأدوارهم، جاء أحمد مبكراً ؛ فلم ينم ليلته محاولاً استذكار كل ما درسه في الجامعة، وجد مكاناً شاغراً جلس ينتظر دوره، لم يقلق في حياته قلقه اليوم ؛ إن لم يفلح في العمل اليوم فهذا يعني :

(سنوات طويلة أخرى من البطالة القاتلة، والفقر المذل)

لقد ضاق ذراعاً بحياته، وهو يرى كل من حوله يتحركون إلا هو .

(أمس الأول تزوج صديقي العزيز سمير في حفل كبير)

سمير ابن مقاول كبير، أما أبوه .

(فلا يكفينا القوت)

حسد سمير على العمل، والغنى، والزواج رغم أن سمير

(صديق عمري، وكنت أتمنى له كل خير)

جاء اليوم وهو يحلم بالنجاح، والتعيين، فيعد يتحمل البطالة أكثر من ذلك .

جاءت فتاة ترتدي ثوباً رخيص الثمن، ولكنها تبدو فيه جميلة

- (يا لها من مفاجأة لم تكن في الحسبان، لم أكن أتوقع أن أراها بعد هذه السنوات)

اضطربت نادية عندما رأته .

- (أحمد.. كم كنت أحبه)

- (نادية.. كم كنت أحبها)

- (كنت أنتظر منه كلمة حب واحدة)

- (خشيت أن تجرح مشاعري)

- (انتظرت كثيراً بلا أمل)

- (خشيت من حرماني حتى من الأمل في حبها)

- (كان حبه عذاباً، وفراقه موت)

- (كان القرار ضرورة، وكان الخوف من الفشل قاتلاً، فضلت أن أعيش جباناً، ولا أموت شهيداً)

- (ربما خاف من أن أصدمه)

- (ربما كانت تحبني)

- (حانت الفرصة الأخيرة)

نظرت إليه، وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة، وأشارت له بيدها إشارة خفيفة .

- (الفرصة قد حانت فلا تضيعها، إنها تبتسم لك، قم إليها وحدثها بما في قلبك، فلن يكون جوابها أمر مما عشت فيه من الحيرة)

خطا نحوها عدة خطوات، وعلى وجهه ابتسامة، قامت متهللة، أسرع الخُطَى، مدت يدها، استوقفه صوت الموظف يعلن عن شغل الوظيفة المعلن عنها ؛ تجمد في مكانه، ظلت يدها ممدودة، لم يخطُ نحوها خطوة واحدة، بدأت يدها في الهبوط رويداً.. رويداً، بدأت رأسه في التنكيس شيئاً.. فشيئاً، جلست حزينة كاسفة البال، أما هو فقد غادر المكان في الحال .





٧

أفكار قديمة



لم يكن له صديق غير الكتاب ؛ فهو خجول، وانطوائي.. يخرج من عمله في الثانية ظهراً، ورغم الحر الشديد، وبُعد المسافة إلا أنه يصر على العودة سيراً على قدميه لأنه يكره الزحام، وأخلاقيات هذا الزمان..

عزف عن الزواج لأنه يريد أن يعيش حرّاً.. الجنيهات القليلة التي كانت يتقاضاه من عمله تكفي لوازمه الشخصية، أما سائر متطلبات الحياة من طعام وشراب وخلاف ذلك فقد كان أبوه يتكفل به، فهو يحبه ليس فقط لأنه ابنه الوحيد إنما لأن ابنه – في ظنه – شاب مسكين ليس كبقية شباب هذا الزمان العفاريت، إنه هادئ الطبع، طيب دائم الصمت، ليس له هواية غير القراءة، والثقافة يشتري بكل ما معه من نقود كتباً، وعندما ارتفعت أثمان الكتب عرف سور الأزبكية، يذهب كل جمعة ليصلي في الحسين، ثم يسير حتى سور الأزبكية حيث يشتري ما طاب له من كتب بأسعار زهيدة، وبهذه الطريقة استطاع أن يستمر في ممارسة هوايته الوحيدة، ولا يثقل على أبيه مادياً .

لكن ما كان يفسد عليه متعة القراءة في كتب الأزبكية تلك الخطوط التي يخطها القُرَّاء السابقون تحت الكلمات، وتلك الرسومات و " الشخبطة " التي تنم عن سخافة أصحابها .

ذات مرة وبينما كان يقرأ أحد كتب الفلسفة إذا بعينه تقع على خط جميل منمق ودقيق على هامش الكتاب، بدأ يقرأ.. زادت دهشته فقد كان الكلام نقد عميق وتعليق دقيق على الكتاب، عاد يقرأ هذه التعليقات من بداية الكتاب، فإذا به أمام عقلية علمية ممتازة، بحث عن اسم صاحب هذه التعليقات، وكانت المفاجأة المذهلة أن وجد على الصفحة الأولى من الكتاب " اسم الطالبة / نسرين شهاب الدين، الفرقة الثانية " .

عاود قراءة الاسم مرة ثانية (أ هذا معقول ؟! فتاة في الفرقة الثانية تكتب هذه التعليقات العلمية الدقيقة !!)

سرح بخاليه في هذه الفتاة، تخيلها في جمال فينوس، وفي حكمة أرسطو، وفي طهارة مريم العذراء (لكن كيف السبيل إليها.. لابد أن أراها.. أتحدث إليها.. أناقشها.. أثبت لها أن هناك مازال شباب عقلاء.. لكن كيف ؟.. كيف ؟)

طرأت على رأسه فكرة غريبة (خيط واهٍ.. ربما)

أخذ دليل التليفون، وبحث عن اسم شهاب الدين (آه.. هذا هو الاسم.. لكن هناك واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة، خمسة.. تسعة، شهاب الدين.. المهمة شاقة.. لكن الحمد لله أن أمسكت بأول خيط الوصول)

أمسك بسماعة التليفون، وأدار الرقمين الأولين لأول اسم من الأسماء التسعة، ثم توقف، ووضع السماعة (ماذا أقول لها ؟.. أحكي لها حكاية الكتاب وأخبرها بأني.. نفترض أن أباها هو الذي ردَّ عليك.. هذه

مشكلة.. المهم الآن أن أتأكد من رقمها الصحيح من بين هذه الأرقام التسعة، وبعد ذلك سأفكر في الأمر بهدوء..)

شرع في تنفيذ فكرته :

– ألوه.. لو سمحت نسرين موجودة ؟

– ليس هنا أحد بهذا الاسم .

– الرقم خطأ .

– تأكد من الرقم قبل أن تتصل .

– نعم موجودة، من تكون سيادتك ؟

ارتبك وضع السماعة، لا يصدق نفسه، بهذه السهولة يصل إليها، أخيراً أحلامه المستحيلة تتحقق، لم يكن يفكر في الزواج رغم إلحاح أبيه، وتوسلات أمه، أخيراً وجد من تصلح أن تكون زوجة له (ليس هناك مشكلة مادية، إذا رفضت أن تعيش معنا في هذه الشقة الكبيرة، سأجعل أبي يبني لي دوراً خاصاً فوق البيت، كثيراً ما كان أبي يقول " عندما يتزوج عامر سأبني له دوراً خاصاً فوق البيت ")

عاد إلى دليل التليفون يقرأ العنوان " ٢٥ ش الملك فيصل، الجيزة (غداً سأذهب لخطبتها.. أنا واثق أنها ستعجب بي فمثل هذه الفتاة المثقفة لا تعجب إلا بشاب مثقف واسع الإطلاع مثلي)

عندما عاد أبوه من عمله في المساء راحت الأم تزف إليه البشرى – من تكون ؟ زميلتك في العمل ؟

- لا هذه مازالت طالبة .

- طالبة ! إنها مازالت صغيرة.. لماذا لم تختر فتاة...

قاطع عامر أباه قائلا :

- إنها طالبة في الجامعة.. في الفرقة الثانية.. بعد عامين سوف تتخرج، وأكون أنا قد جهزت كل شيء.. إنها مناسبة جداً...

- هل هي من أسرة طيبة ؟

- نعم إن أباها يعمل محامياً كبيراً ويسكن في فيصل .

- على بركة الله.. متى نذهب لنقرأ الفاتحة ؟

- غداً سأتعرف على أبيها، ونحدد ميعاد قراءة الفاتحة .

أخرج أبوه من محفظته مبلغا كبيرا ودسه في يد عامر وهو يقول:

- اشتر " بدلة " جديدة، وخذ معك هدية قيِّمة ليعرفوا أنك من عائلة ميسورة .

لم يشتر عامر بدلة جديدة (إنها ليست فتاة ممن تعجب بالشكل.. يكفي أن أمسح الحذاء)

تحيَّر كثيراً في نوع الهدية التي يأخذها معه، وأخيراً قرر أن يشتري لها كتباً (هذه أحسن هدية.. ستعجب بها كثيراً)

سأل بواب العمارة :

- الأستاذ شهاب الدين المحامي، في أي دور يسكن ؟

- في الدور الثالث، لكنه ليس موجوداً الآن.. سافر اليوم إلى الإسكندرية هو وأسرته .

- هل تريده في قضية ؟ أم مسألة خاصة ؟

- مسألة خاصة .

- على العموم ابنته الكبرى تسكن الشقة المقابلة لشقته، الدور الثالث على اليمين شقة رقم خمسة .

- شكراً .

(الحمد لله، هذا أفضل فمحادثة ابنته في البداية أفضل من محادثة الأب .)

ضغط على زر الجرس، خرجت فتاة في العاشرة من عمرها .

- أفندم

- الأستاذ سمير موجود .

وكان قد قرأ الاسم على الباب .

- أهلاً وسهلاً..

- أهلا بك .

- هل من خدمة أقوم بها ؟

- في الحقيقة أني كنت آتياً للأستاذ شهاب الدين، لكنني علمت أنه سافر صباح اليوم .

- أنا زوج ابنته.. فيم كنت تريده ؟

- الحقيقة أنا كنت أود طلب يد ابنته .

- ابنته ! !

- نعم ابنته .

- لكن ابنته مازالت صغيرة .

- سوف انتظرها حتى تتخرج.. أنا لست متعجلاً .

-....

- في الحقيقة أني منذ قرأت كتابها...

- كتابها ! ! !

- أصل الحكاية...

وهنا أخرج عامر الكتاب من جيبه، وواصل كلامه .

- كنت أقرأ هذا الكتاب، وأعجبت جداً بتعليقاتها الدقيقة، فأنا مثقف جداً و...

قاطعه سمير بحدة بعدما قرأ الاسم المكتوب على الكتاب :

- من أعطاك هذا الكتاب ؟! ومنذ متى تعرفها ؟.. تكلم.. تكلم.

- أنا لا أعرفها، أنا اشتريت هذا الكتاب من الأزبكية..

قال سمير وقد نفد صبره :

- ماذا تريد بالضبط ؟ وما هي حكاية الكتاب ؟

- لماذا أنت منفعل هكذا.. أنا رجل محترم، أنا لا أقل ثقافة عن الآنسة نسرين بل ربما...

- الآنسة نسرين !!

جاءت امرأة في العقد الرابع من عمرها على أثر زَعْق سمير، وذِكْر اسمها، ما كاد سمير يراها حتى صاح فيها :

- ما علاقتك بهذا الشخص ؟

- علاقتي به !! أنا لا أعرفه.. لم أره من قبل...

- وكيف يعرفك هو ؟

- أنا لا أعرفها.. أنا اشتريت هذا الكتاب...

وهنا تذكر سمير الكتاب فدفع به لزوجته وقال :

- أليس هذا الكتاب كتابك ؟ وهذا الاسم اسمك ؟

أخذت الكتاب وقرأت اسمها وتصفحته سريعاً

- نعم أنه كتاب قديم من كتب الكلية، أين وجدته ؟

- هذا الشخص أعطاه لي .

- نظرت نسرين إلى عامر وقالت غاضبة :

- من أعطاك هذا الكتاب ؟ أنا لا أعرفك.. وماذا تريد مني ؟

قال عامر وهو لا يكاد يفهم شيئا مما يجرى :

- أنـا اشـتريت هـذا الكتـاب مـن الأزبكيـة وقـرأت التعليقـات المكتوبة....

- تعليقات، وما هذه التعليقات يا هانم

- انتظرْ يا سمير لحظة حتى نفهم الحكاية

- أنا قرأت هذه التعليقات وأعجبت بكاتبتها لأن هذه التعليقات تَنُم عن..

- تقصد الكلام المكتوب على هامش الكتاب .

- نعم.. نعم إنه يَنُم عن...

- هذا كلام الدكتور أستاذ المادة، كان يأمرنا بكتابته .

- كلام مَن الدكتور !!.. هذا كلام الدكتور !!!!

- ما شأنك أنت إن كان كلام الدكتور أم كلام غيره.. شيء عجيب .

- وأنت.. نسرين صاحبة الكتاب.. أنا آسف..آسف.. لقد ظننتُ.. أنا آسف .

- وماذا يفيد الأسف.. كيف تقتحم على الناس بيوتهم، وتزعجهم .

- أصل الحكاية، أني اشتريت هذا الكتاب من...

- وما شأننا نحن بهـذا.. اشتريت الكتاب أو سرقته، والآن تفضل اخرج مع السلامة .

حاول عامر أن يتكلم لكن يد سمير كانت أسرع منه، ودفعه إلى الخارج، بينما كانت نسرين تضرب كفا بكف وتقول :

- من هذا المجنون ؟

خرج عامر وقد قرر ألا يذهب إلى سور الأزبكية ثانية .





٨

الأغنية الجديدة



جلس جمال على مائدته التي تعود أن يجلس عليها دائماً، أخذ يتابع أمواج البحر، يحاول شغل نفسه عن موضوع يُلح عليه، ولكنه لم يفلح .

- (ترى هل ظلمتها ؟.. بالقطع لا... لماذا بكت إذن عندماً أخبرها وليد بخطبتي سعاد ؟.. وليد أكد لي هذا.. ثم جففت دمعها وطلبت منه أن يخبرك بأنها تريد صورها، وخطاباتها، وكل متعلقاتها.. وعندما أخبرها وليد بأني أحرقتها جميعاً، أجهشت بالبكاء.. وسبتك بعنف.. لم تكن تتصور مهما حدث بيننا من خلاف أن أحرق صورها، وخطاباتها)

تنبه جمال على يدين ناعمتين توضعان على عينيه برفق، قفز إلى ذهنه صورة عبير، وكاد ينطق باسمها، لولا أن سعاد رفعت يديها عن عينيه وهي تقول باسمة :

- هل تأخرت عليك ؟

- أبداً.. أبداً.. الساعة الخامسة بالضبط (ليتها تأخرت)

- أوحشتني كثيراً .

- وأنت أيضاً .

- مالك !

- لا شيء .

– يبدو أنك غير سعيد برؤيتي .

رسم على وجهه ابتسامة زائفة وقال :

– أنا سعيد جداً لرؤيتك.. أنا فقط كنت قلقاً عليك .

قال الجملة الأخيرة مقطعة، وسعاد تنظر إليه، وهو يحاول أن يتفادى نظراتها .

– أريد أن أسألك سؤالاً، وليتك تصدقني فيه.. أ مازلت تحبها ؟ وتفكر فيها ؟

قال مدعياً أنه لا يفهم ماذا تقصد :

– أحبها !! أحب من ؟

– عبير .

– ماذا تقوين ؟ أنا أحبها ! إنها بنت حقيرة .

– لكنك تحبها .

– هذا غير صحيح.. هذه بنت منحرفة حاولت إصلاحها، ولما وجدت أنه لا خير فيها تركتها.. أنت تعلمين ذلك جيداً .

– ألا تفكر في الرجوع إليها ؟

– أبداً.. أبداً.. أنا أحبك أنت يا سعاد ولذلك خطبتك .

بث المذياع أغنية قديمة أراحته من تكلف الكلام، أما سعاد فأشاحت بوجهها إلى البحر وقالت في نفسها :

– (ليته يسكت، أشعر بالكذب في كل كلمة ينطق بها .

– (الحمد لله أن أراحتني هذه الأغنية عن مواصلة الكلام، ولن تغضب سعاد لصمتي لأنها تعرف كم أحب هذه الأغنية، ولكن يجب أن أنبهها إلى ذلك.. زيادة في الاحتياط)

– جميلة هذه الأغنية كم أحبها (لم ترد.. هل صدقتني ؟.. أنا عملت ما أستطيع لكي أثبت لها أني.. فلتفهم ما تشاء)

= (يحاول أن يفهمني أنه يستمع للأغنية.. لقد أخطأت عندما قبلت خطبته.. إنه مازال يحبها حتى في وجودي.. ولكنه اختاركِ أنتِ.. اختارني أنا بدليل أنه قال لي في يوم الخطبة " هذه الخطبة مجرد فرصة للتعارف " !!.. إنه يحاول أن ينساها بي)

– (إنني حقاً ظلمتها.. كنت قاسياً عليها آخر مرة طالبتها بما هو فوق طاقتها، ومع ذلك مازالت تذكرني، مازالت تحبني.. كان عليَّ ألا أتعجل الحكم.. كان عليَّ أن أعطيها فرصة أخيرة.. ولِمَ لا تذهب إليها غداً وتخبرها بأن خطاباتها وصورها وهداياها مازلتَ تحتفظ بـ ا، وما زلت تحتفظ بذكرياتك الجميلة معها.. وسعاد.. سعاد !..سعاد خطيبتك..لقد خطبتها لأنقذها من الخطيب الذي كانت لا تحبه.. وأنت الخطيب الذي تحبه !.. أعرف حبها لي، ومع ذلك أنا لم اجعل خطوبتي لها قيداً، إنما هي فرصة للتعارف.. إنها تحبك ويكفي أنها قبلت الخطبة وهي تعلم ما بينك وبين عبير.. عبير الشيء الوحيد الذي لا أغفره لها أنها وسَّطت كل من له صلة بي للصلح بيننا حتى أصبحت حاكيتي معها على كل لسان..

ومع ذلك قبلت سعاد ابنة عمك أن تخطب لك.. هرباً من خطيبها.. بل حباً فيك فقد كان باستطاعتها أن ترفض دون معاونتك.. فماذا تريد مني أن أفعل؟.. تحبها كما تحبك.. لا أستطيع، ليس بيدي.. على الأقل حاول أو تظاهر بذلك، أشعرها أنك تحبها)

التفت جمال إلى سعاد، وبدأ يتأمل وجهها الجميل، وبراءتها الصارخة، كأنه يراها لأول مرة، وقال بصوت رخيم ممتزج بابتسامة عذبة :

– إنك جميلة حقاً يا سعاد .

التفتت سعاد إليه، واصل كلامه :

– إنك أجمل فتاة رأيتها.. أنا سعيد أننا معاً .

– قالت في شجن :

– ليتك تكون هكذا دائماً .

شعر جمال بقلبه يهتز نشوة :

– أنا أحبك يا سعاد، ولذا خطبتك .

– ليتكَ تحبني كما أنا...

– كما أنتِ ماذا ؟ أكملي .

قال ذلك وقد بدأت عليه فرحة شاب مراهق يحب لأول مرة، قالت هامسة :

- كما أحبك .

أحس أن كل جسده يهتز طرباً ونشوة كأنه يسمع كلمة الحب لأول مرة في حياته، قال لها مستعطفاً :

- عديني أن تظلي بجانبي، ولا تتخلي عني أبداً مهما حدث

- على أن تعدني ألا تفضل عليَّ أغنيتك القديمة .

أمسك بيديها وقبلهما بحب وهو يقول :

- أعدك ألا أسمع إلا صوتك الجميل .





٩

الأصل والصورة





(معرض الكتاب هذا العام مزدحم هذا من حسن حظي حتى أستطيع أن أنقّب وأبحث دون أن يراقبني أحد أو يقيد من حركاتي ففي الزحام كل إنسان يكون مشغولا بنفسه . أما الباعة فيكبون على تدوين الفواتير . اليوم أستطيع أن أخرج من بين هذه الكتب ما يروي عطشي) .

أخذ يتصفح الكتب : يقرأ عناوينها، يلقي نظرة على فهرسها من كثرة ارتياده للمعارض وشرائه للكتب، اكتسب خبرة كبيرة في شراء الكتب، أصبح يستطيع شراء أفضل الكتب بأزهد الأثمان في المعرض يذهل عمن حوله فلا يرى سوى الكتب، لكن هذه المرة وبينما هو متهمك في التنقيب، اقتربت منه فتاه في العشرين من عمرها تلبس ثياباً منسقة، ثياباً خضراء غير فاقعة اللون (هذا هو اللون الذي أحبه لا أدري لماذا أنا مشدود لهذه الفتاة ؟ هل بسبب انكبابها على الكتب أم ثيابها أم ملامح وجهها الجميل . دعك من هذا وعد إلى ما كنت فيه فهذه الفتاة مثل غيرها، فلا تجعل مثل هذه الأمور الصغيرة تشغلك عن المهمة التي جئت من أجلها)

عاد إلى البحث وفجأة رأي كتاباً ظل يبحث عنه لفترة طويلة لا توجد إلا نسخة واحدة منه، مد يده بسرعة وإذا بيد تسبقه إليه التفت إلى صاحب هذه اليد فوجئ أنها ذات الرداء الأخضر لم يدر ماذا يقول ؟ ماذا يفعل ؟ أما هي فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت بصوت عذب حنون .

- إنه من نصيبي، كنت أبحث عنه والحمد له وجدته .

- قال وقد شجعته ابتسامتها .

- يبدو أنك من طلاب الأدب النهمين .

- قالت بصوت هادئ رزين :

- نعم أحب القراءة بصفة عامة وفي الأدب بصفة خاصة، شعر بسعادة كبيرة (فتاة في عمر الزهور تهتم بالثقافة وتبحث عن كتبها) لما وجدته واجماً قالت :

- يبدو أنك من دارسي الأدب .

- نعم أنا من دارسي الأدب ومع ذلك فثقافتي لا تقتصر عليه فحسب.

واتته الفرصة لكي يستعرض ثقافته ومعلوماته أمام هذه الفتاة الجميلة التي شدته إليها من أول نظرة فقال وقد تحول إلى مراهق :

- إن مكتبتي الخاصة ممتلئة بجميع فروع العلم والثقافة لكن للأدب نصيب الأسد فيها . إن المعارف والعلوم تتكامل ولا يغني أحدها عن الآخر.

– بالضبط وهذا ما يجعلني مفتونة بالعقاد الذي كتب في جميع فروع الثقافة كأفضل ما كتب المتخصصون .

(أيعقل هذا إنها تتحدث بلساني إن هذا الكلام عن العقاد كثيراً ما رددته . أ يكون هذا هو توارد الأفكار ؟.. ربما.. إني سعيد بهذه الفتاة، سعيد سعادة لا توصف ليس فقط بجمالها إنما أيضاً بثقافتها . هذه ما كنت أبحث عنها طول حياتي لكن ماذا أفعل ؟ ماذا أقول لها ؟ هل أقول لها : أحبك وأريد أن أتزوجك ؟ هذه حماقة وتسرع فهي لا تعرف عني شيئاً وربما رفضتني أو تكون مخطوبة)

– فيما شردتَ ؟

– لا شيء لاشيء فقط كنت أفكر في كلامك (الوقت مناسب لكي اسألها عن دراستها) يبدو أن دراستك تحتاج إلى كتب كثيرة .

– ليس بالضبط إنما كما قلت لك أحب مطالعة الكتب والثقافة .

(لم تجب عما أريد.. لابد أن أسألها سؤالا مباشرا)

– وماذا تدرسين أذن ؟

– أنا طالبة في كلية الآداب قسم علم نفس .

– حقاً.. أنا تخرجت أيضا في كلية الآداب لكن قسم اللغة العربية، إنها فرصة سعيدة حقاً .

– لماذا اخترت علم النفس بالذات ؟

- إن الإنسان من أوليات معرفته لابد أن يعرف نفسه، ويعرف من حوله من الناس، وعلم النفس يتيح للإنسان هذه الفرصة .

(شيء لا يصدقه عقل مع أني لا أومن بتناسخ الأرواح إلا أني كدت أصدق بأنا نحيا بروح واحدة، إنها تعبر عما أحس.. ميولها هي نفسها ميولي) قال في دهشة :

- شيء عجيب إن ميولنا مشتركة، أنا أيضاً أحب علم النفس، ومكتبتي الخاصة بها قسم كبير بعلم النفس .

المكان كان مزدحماً وبين الحين والحين يقطع حديثهما شخص، قال لها في تردد من يخشى الرفض :

- أتسمحين لي بدعوتك لتناول كوب شاي ؟ ونستريح بعض الوقت من هذا الزحام الخانق .

أومأت برأسها بالموافقة، جلسا على مائدة صغيرة، وهو لا يصدق ما يجري، قالت له مازحة :

- نسيت أنك دعوتني إلى تناول الشاي.

- آه تذكرت .

نادى على العامل وطلب كوبين من الشاي، ولما وجدته واجما قالت :

- فيم كنا نتحدث ؟

- أه.. كنا نتحدث عن الثقافة والكتب .

- إن القراءة هي غذاء روحي، والكتب هم أصدقائي .، وأعجب من هؤلاء الذين لا يقرءون، أنا واثقة من أنهم لو عرفوا الكتاب ما رضوا بغيره بديلاً .

صاح قائلاً :

- هذا نفس الكلام الذي كنت أقوله لسمير صديقي بالأمس، هذا شيء عجيب إلى هذا الحد نحن متفقان، اسمحي لي بأن أسجل إعجابي بك..

وأكمل كلامه بإحساس مراهق .

- لماذا لم نلتق من قبل ؟ أنا حزين على الأيام التي ضاعت قبل أن ألتقي بك، نسيت أن أسالك عن اسمك أنا اسمي أشرف.. أشرف فاضل مدرس، وأنت ما اسمك ؟ .

قالت وقد بدا عليها الارتباك :

- اسمي هالة .

- وأين تسكنين، أنا أسكن في شارع الإخشيد بمنيل الروضة، وأنت .

طأطأت رأسها وقالت بلهجة استعطاف وتوسل :

- أنا هالة أخت سمير صديقك .

وقع الكلام عليه كالصاعقة (أختَ سمير كيف ؟!) ثم استرسلت في الكلام مع ارتفاع نبرة الاستعطاف .

– لقد أعجبت بك من حديث سمير عنك، ومن كلامك معه الذي كنت أرهف له السمع.. أعجبت بعلمك وأخلاقك وثقافتك، أحببت ما تحب، وكرهت ما تكره.. كنت أجلس الساعات الطوال حيث لا تراني أنصت لحديثك، وشِعْرك.. تمنيت أن تعرف مقدار إعجابي بشخصيتك.. وسمعتك بالأمس تذكر لسمير أنك ذاهب لمعرض الكتاب غداً فانتهزت الفرصة .

أحس بماء مثلج يسقط على رأسه.. استيقظ من حلمه الجميل .

– (عشت عمري أكره شيئين : الجهل، والخديعة ، وشاء القدر أن يتجسدا في شخص واحد، وفي لحظة واحدة)

تركها تتكلم، وتتكلم.. لم يسمع من كلامها شيء، راح يقلب في الكتب الموضوعة على المنضدة حتى وجد الكتاب الذي يبحث عنه، قلب صفحاته، استوقفه شيء في الكتاب، عندما تيقن منه أغلق الكتاب .

– (نسخة الكتاب ليست أصلية بل صورة من الأصل، نسخة غير شرعية كما يقول الناشرون)

ألقى بالكتاب ونهض واقفاً . قالت باستعطاف

– خيراً ماذا حدث ؟ لماذا وقفت فجأة ؟

– ذاهب لأبحث عن نسخة أخرى من الكتاب .

قالت وهي تمد يدها بالكتاب إليه :

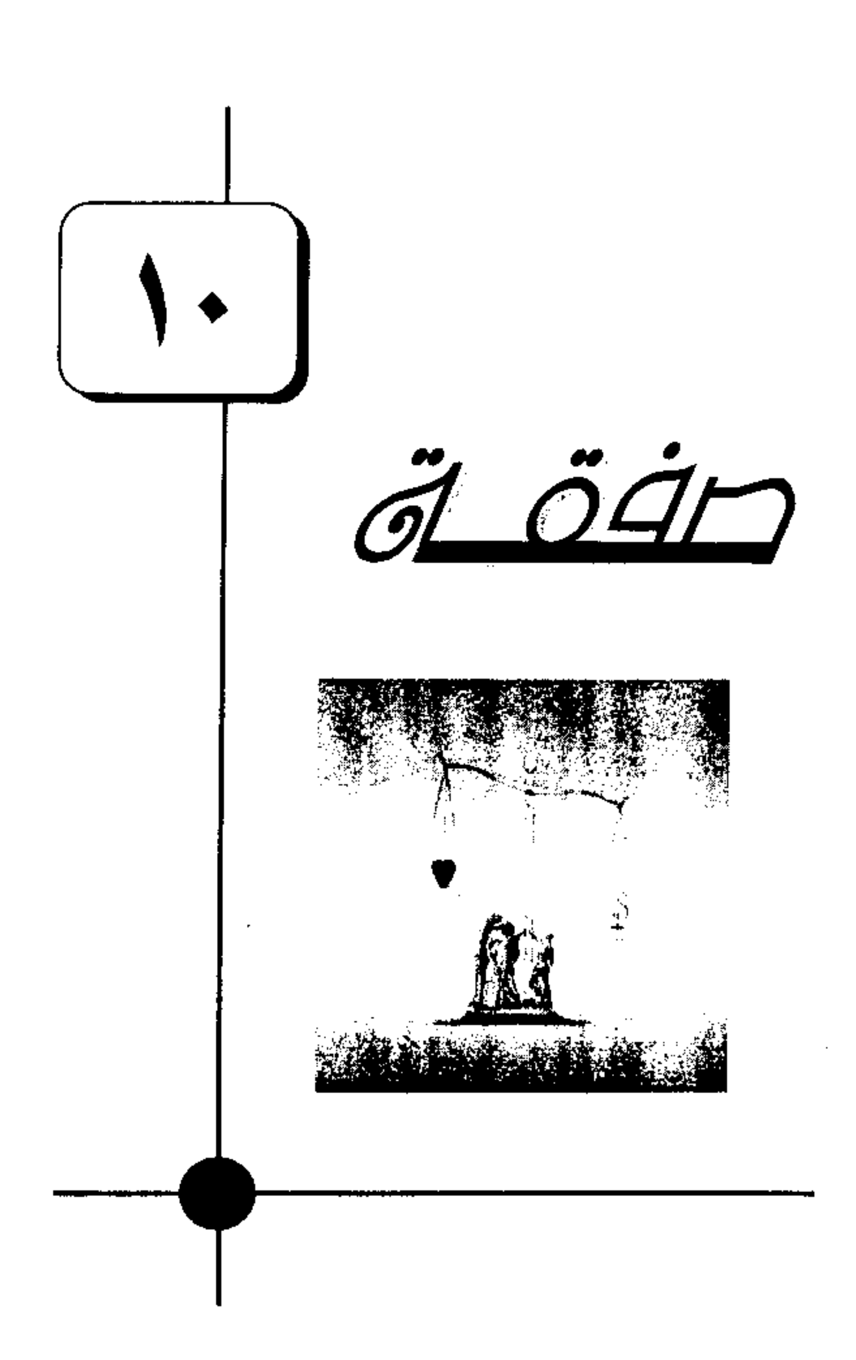
- لا تتعب نفسك خذ هذه النسخة أنا اشتريتها لك .

- أنا شاكر لتعبك من أجلي، لكني أبحث عن النسخة الأصلية لا الصورة .



١٠

صفقة



عاصفة من الزغاريد ، وزلزال من حركة الأقدام، ورقصات الكبار والصغار، تحول البيت الهادئ إلى ميدان عام في ساعة الذروة .

تسلل هشام إلى حجرته، وأحكم إغلاقها، وزعم للحضور أنه يريد أن ينام بعض الوقت استعداداً لسهرة الليلة .

– هل هناك عريس ينام في يوم فرحه، يا بني تعال افرح معنا، فاليوم يومك .

فور غلقه للباب الابتسامة الباهتة التي تعب كثيراً في رسمها على وجهه كانت قد انطفأت، والملابس الأنيقة التي حاول أن يثبت بها سعادته كانت قد خُلِعت وأُلقِيت على الأرض، تمدد على السرير شبه عارٍ، بركان في صدره يخشى أن ينفجر، معركة في رأسه تدور يخشى أن تنتصر، سم في أحشائه ودَّ لو تقيأه، الطوق الذي يحيط برقبته يضيق شيئاً فشيئاً.. تقلب في فراشه ولم يستقر.. حاول النوم ولم يفلح، نهض يريد أن يكتب يصرخ على الورق، بحث عن قلم وأوراق، لم يجد ؛ فقد أُخْلِيت حجرته من الورق والأقلام، دار في الحجرة شبه عارٍ ونصف مجنون.. يقلب في كل الأشياء.. الورد العطور.. الهدايا.. الملابس الجديدة.. الأحذية اللامعة.. إن لم يصرخ الآن لمات (مستحيل أن يسمع صراخي أحد) فكر، وفكر، منفضة السجائر بها سيجارتان (.. فكرة) نزع الفلتر

من إحداها، وجال ببصر صقر في أعلى الحجرة وأسفلها، توقف بصره عند صبغة الأحذية التقطها بسرعة، وفتحها وغمس فيها فلتر السيجارة (أين الورق ؟.. أين الورق ؟) وجال ببصره ثانية في أنحاء الحجرة (.. النتيجة) نزع بسرعة ورقة منها، وعلى ظهرها وضع الفلتر المغموس بصيغة الأحذية البنية (ماذا أكتب ؟.. أكتب عن أبي.. عن خطيبتي الجاهلة.. عن أرضنا التي ستضيع.. لا أدري ماذا اكتب.. أنا الشاعر لا أستطيع التعبير عما تجيش به نفسي.. لأول مرة يخونني قلمي.. لأول مرة أعجز عن الإفصاح عن نفسي.. كنت لسان الآخرين، والآن قطع لساني.. لابد أن أكتب أي شيء.. أي شيء)

رفع الفلتر الذي صنع بقعة بنية كبيرة، وحركه بسرعة على ورقة النتيجة " أنا حزين.. حزين جداً جداً.. سأدخل اليوم بابنة عمي.. أبي الذي أرغمني على هذا.. لم يرغمني فقط حكى لي عما بينه وبين عمي من مصالح.. أبي كاد يبكي وهو يحكي.. لم أستطع أن أرفض.. قبلت المساومة.. من أجل أبي الحبيب "

نزع ورقة نتيجة أخرى بسرعة، وغمس الفلتر في الصبغة البنية " اليوم ستتم الصفقة.. أشعر أني جبان.. فما ذنب ابتسام ؟.. وما ذنبي ؟.. أحببتها وأحبتني.. ابتسام تفهمني، تعشق شعري ، تشجعني تهلل وجهها، وقفزت كالأطفال عندما قرأت عليها قصيدة " أحلام عمري " وبكت وندت فستانها بالدموع عندما كتبت " مرثية الخريف " .

على ورقة ثالثة كتب " فكرت بعد أن تنتهي الصفقة أطلق سمر.. وبعدت أن فكرت وقررت.. نظرت إلى الفرحة في عينيها . تراجعت، وأحسست أني جبان "

ورقة رابعة " اليوم سوف يتم زفافي عليها.. واليوم ستكون أول خيانة لابتسام.. "

تنبه هشام على صوت طرقات على الباب، وصوت أمه تدعوه أن يستيقظ، ليستقبل المدعوين الذين جاءوا لتهنئته .



١١

هوى المصارف



جلس على شاطئ البحر، يتأمل المياه الزرقاء.. الرمال الصفراء.. يتابع الأطفال وهم يلعبون.. وهم يبنون بيوتاً على الرمال، في نفس هذا المكان رآها .

(جميلة كالأميرات، بريئة كالأطفال، رقيقة كالنسمات، مستحيلة كالأمنيات .)

أحبها من أول نظرة التقت عيناهما ثم .

(طارت كعصفور صغير، وذهبت كشمس الأصيل، ومضت كالحلم الجميل)

يتمنى أن يراها ثانية، منذ ساعات يجلس في نفس المكان الذي رآها فيه أول مرة .

(هل هي من سكان الإسكندرية ؟ أم من المصطافين ؟ هل انتهت مدة إقامتها ؟ هل ستعود العام القادم ؟ لا أستطيع أن أنسى صورتها الجميلة، ما أجمل الحب ! بل ما أعجب الحياة ! كيف أنسى إيمان التي كانت كل حياتي، وكثيراً ما جلستُ في نفس هذا المكان أفكر فيها، وأحلم بمستقبلنا السعيد معاً، ومن يدري ربما لولا أمها ما فكرت في غيرها، ما فكرت في عزة حبيبتي الصغيرة، خطاباتها ما زالت تؤنس وحشتي، عبيرها ما زال ينعشني، وهواؤها يخفف عني حر الصيف، لا أدري عندما أذكرها الآن

أحس أنها قريبة مني لدرجة أني لا أشتاق إليها.. ما لي أتذكر هذه المواضيع القديمة الآن، هذه المواضيع التي من أجلها حملت حقائب السفر، أشعر بفراغ كبير ، إلى من تشاركني حب الغروب، والبحر، والرمال، أحتاج إلى أن أحَب، وأفرح كالأطفال عندما ألقاها، وأسهر الليل أفكر فيها عندما نفترق، كنت مع إيمان هكذا)

لقد تأخَرَت كثيراً، الشمس غابت، وابتلعها الظلام، والبحر بعد الهياج سكن ونام، عاد يتسكع في الطرقات، يحدق في الفتيات، وحيد يمني نفسه بالبسمات، يحس أن الكل يشفق عليه، يسخر منه، عاد يقلب في الخطابات .

(عطر الحبيبة بدده هواء السفر، والكلمات الرقيقات على الأوراق تحتضر)

حزم أمتعته وقرر السفر .



١٢

شاب من القرن الماضي



(ترى ماذا يكون شعورها عندما تراني ؟ أكيد ستفرح، وعندما يقدمني حسام لها ستتنكر لي، تماماً كما فعلتُ أنا عندما حدثني حسام عنها.

يومها تعجب حسام كيف نكون في كلية واحدة ولا أعرفها، كدت أنساها وعندما حدثني عنها أحسست أني أحبها من مائة عام، وأن شوقي إليها لم يطفئه البعاد، حدثني حسام عنها كثيراً منذ أن رآها في فرح أحد أقاربه حتى آخر لقاء بينهما، كلما حكى لي حسام عنها تزداد حيرتي، ويلح عليَّ سؤال، كيف سناء العصفورة الصغيرة الجميلة تخطب لهذا الإنسان الذي مغامرته لا تخفى على أحد، من المؤكد أن أباها أجبرها على الزواج منه فهو شاب جاهز، ومن المؤكد أيضاً أن عصفورتي الصغيرة الجميلة تبكي ولا يستمع لها أحد، أما ما كان يحكيه لي حسام عن حبها له فهو محض افتراء وخيال ؛ يحسبني لا أعرف سناء عصفورتي الصغيرة الجميلة، لا يعلم أني أعرفها أكثر من أي إنسان آخر، أتخيلها الآن وهي ترتدي فستانها الأخضر، وتجلس في ركن بعيد هادئ في الظلام تناجي النجوم، وتحلم بيوم تعود في للطيران مرة ثانية، وتتنزه بين الرياض، تحط على شجرة تين وبمنقارها الصغير تأكل من أجمل ثمارها، وتطير، تطير، وتحط على شجرة عنب لتلتقط حبة صغيرة، وتطير، تطير وتشرب من ماء الغدير)

تنبه إبراهيم على صوت .

(موسيقى صاخبة !.. أغاني شبابية زاعقة !.. قهقهات حادة ! معقول أن تكون سناء من بين هؤلاء، تسمع هذه الموسيقى، وتغني هذه الأغاني !)

نظر إلى رقم الشقة .

(الرقم مضبوط)

تردد في الدخول

(هل سأدخل هذا المكان، وأغني، وأضحك مثل هؤلاء ؟!.. لا.. لا.. أكرم لي أن أعود، وعندما أقابل حسام أعتذر له عن عدم المجيء بسبب.. بسبب موضوع عائلي)

بعد أن دار على عقبيه وخطا خطوتين، سمع ضحكة خليعة، وبعض الكلمات المثيرة .

(هذه فرصة لأتعرف على هذا المجتمع الجديد، ولأرى العصفورة الجميلة الرقيقة.. أتخيلها الآن تجلس بمفردها بفستانها الأخضر في ركن بعيد وتنظر إلى ما يجري بامتعاض)

ضغط على زر الجرس برفق ؛ لم يسمع أحد ضغط مرة ثانية لم يفتح أحد، ضغط بقوة ولمدة طويلة ؛ الباب مازال موصداً، والهرج مازال صاخباً، وهو في صراعه هل يضغط ضغطة أخيرة أم يعود من حيث أتى، فُتح الباب، استقبله حسام بفرح شديد صائحاً :

- العبقري وصل .

أحس بخجل شديد وتندى جبينه بالعرق .

- تفضل البيت بيتك، والفرح فرحك.. بإذنك .

- حسام.. حسام.. انتظر.. أنا.. أنا .

ضاع صوته وسط الضجيج، أخذ يقلب بصره دهشاً بما يرى من أضواء حارقة، وزينة متكلفة، ومدعوين عابثين .

وفي ركن بعيد جلس يشاهد هذا العالم الجديد، تذكر سناء .

(أريد أن أراها، ها هي.. لا.. لا.. مستحيل هل هذه هي سناء العصفورة الصغيرة الرقيقة الجميلة ؟!!.. شيء أغرب من الخيال)

بدأ يفيق من الصدمة .

(كنت أحلم أن نعيش بلا أضواء بلا أصدقاء، نعيش بين الزهور، وترفرف فوقنا الطيور، في الصباح نلعب كطفلين، وفي الغروب نسهر على شاطئ البحر كعاشقين، وفي المساء نفترش العشب، ونقول الشعر، أقول فتسمعين أسكت فتغردين، وعلى صدري تنامين، أحلم وتحلمين نحلم حلماً واحداً، نسمة الفجر تنعشنا وتداعب شعرك الأثيث، قطرات الندي العذبة توقظنا، وتجففها أشعة شمس الشتاء الدافئة، ومع الطيور نطير، نشقشق كالعصافير)

على صوت موجة عالية من التصفيق أفاق، عـادت الأضـواء الحارقـة، واختفت الزهور المتفتحة والعصافير المغردة، ونسمة الفجر أصبحت دخاناً خانقاً، وقطرات الندي أصبحت عرقاً لزجاً

(هذا المكان ليس مكاني)

قام، وسار بهـدوء، الأجـساد الشابة تـصطدم بـه دون اعتـذار وهـي ترقص، اصطدمت به سناء حسبها ستفيق، وتتوقف عن الرقص، وترجـوه أن ينسى ما رأى، وتكمل له حلمه المبتور .

لم تكف سناء عن الرقص كأنها لم تـصطدم بـشيء، أكمـل طريقـه إلى الباب دون أن يشعر بـه أحـد فـتح البـاب، ونظـر نظـرة حزينـة للـوراء، وخرج، وأغلق الباب خلفه، وقال بصوت مسموع :

- الحلم الأول .

وابتسم ساخراً، ومضى .



١٣

حلم قديم



دكان صغير أمامه مصطبتان متقابلتان يجلس عليهما الراغبون في السمر، والتفكه بعد عناء العمل طيلة النهار في الحقول..

كانت أكواب الشاي الثقيل تدور عليهم من وقت لآخر.. هاجرت أسرة خالد إلى القاهرة منذ أكثر من عشرين عاماً.. تعود خالد أن يأتي كل صيف لزيارة قريته.. في كل مرة يأتي فيها يلتف حوله شباب القرية.. يسألونه عن مصر، وعما فيها من عجائب..

انفض مجلس السمر عندما اقتربت الساعة من العاشرة .

بينما كان خالد في طريق العودة سمع من يناديه :

– أستاذ خالد..أستاذ خالد .

لتفت خالد تجاه الصوت رأى صبياً في العاشرة من عمره

– ابن من أنت ؟ ماذا تريد ؟

– أنا سالم ابن سيد أحمد خفير العمدة، ألا تذكرني ؟!

– أه تذكرتك، وماذا تريد يا سالم ؟ أتريد أن ترى صورتي وأنا في حديقة الحيوان، والتي كان يتصارع على رؤيتها كل من في الدكان .

– لا.. لا أنا أريد أن أذكرك بوعدك .

- وعدي ! أي وعد ؟

- وعدك لي العام الماضي بأن تأخذني معك إلى مصر .

- أنا لا أذكر أي شيء .

- الوعد الذي وعدته لي قبل سفرك وكنت جاساً تحت شجرة النبق القديمة أمام الترعة عند غروب الشمس، وكنت ممسكاً بكتاب أخضر، وكنت...

- كثيراً ما اضطر لمثل ذلك مع بعض الصبية مثلك .

- لكني صدقتك.. عشت على هذا الأمل.. كنت أسخر من الذين يرددون وعدك لهم.. لم يخطر ببالي أني مخدوع مثلهم .

أخذ يبكي، ربت خالد على كتفه برفق، وحنان وقال له :

نتحدث في هذا الموضوع غداً.. سأنتظرك تحت شجرة النبق عند الغروب .

طار سالم فرحاً، وفاضت عيناه بالدموع وقال :

- هل وافقت على أن تأخذني معك ؟

- غداً سأخبرك .

استيقظ أهل القرية على صوت الشيخ محمد يؤذن لصلاة الفجر.. توضئوا واصطفوا خلف الأمام.. بعد الصلاة عاد كل إلى داره ليجد طعام الإفطار معداً.. لبن رايب.. جبن قريش.. شاي.. بعد الإفطار حملوا

فئوسهم.. مفاتيح كنوز الأرض.. ساروا إلى عملهم مشفوعين بأدعية الأمهات، والزوجات .

مع غروب الشمس تكون عودتهم.. هم لا يعملون في الظلام.. عاد كل إلى داره إلا سالماً.. كان على موعد مع أحلامه، موعد مع الأستاذ خالد .

قضى خالد يومه يفكر كيف يقنع سالماً بالعدول عن السفر.. كيف يخبره بالحقيقة.. بينما قضى سالم يومه في تجميع كلمات السخرية، والشماتة التي سوف يرشق بها الصبية الذين سخروا من سفره يوماً.. قبل أن يذهب سالم إلى الميعاد انعطف على بيته وملأ حجره قمحاً خلسة..استبدل بالقمح قطعتين من الحلوى.. أخفاهما في ثيابه.. عندما رأى خالد دس في يده قطعتي الحلوى قائلاً :

- إنهما قطعتا حلوى : واحدة حمصية.. الثانية سمسمية .

- لا.. لا.. شكراً، أنا لا أحبها .

- إنك تكذب عليّ لا يوجد من لا يحب الحلوى.. العمدة نفسه يشتهيها .

وبعد اطمئنان سالم إلى قبول الأستاذ خالد هديته قال له مبتسماً :

- ومتى سوف نسافر ؟

طأطأ خالد رأسه، ولم ينبس بكلمة.. كرر سالم السؤال.. لا جواب .

جر سالم رجليه إلى بيته، وقد ندى تراب الطريق بدموعه .

سافر خالد، وعندما عاد في العام التالي لم ير سالماً.. سأل عنه قالوا : هرب بعد سفرك العام الماضي، حسبناك تعرف مكانه .

قال أحدهم : إنه يعمل بائع فاكهة متجول .

وقال آخر : بل سمعت أنه يعمل في طائفة المعمار .

وقال ثالث : سمعت أن الله فتح عليه، وأصبح شريكاً في دكان خضراوات كبير .

أما خالد فالشيء الوحيد الذي كان متأكداً منه أن سالماً قد استيقظ من حلمه الآن .



١٤

فتاة غريبة

كلما رآها أو سمع عنها شيئاً يحس بأن مطرقة تقرع رأسه.. تهشمه.. يثور.. ينفعل.. يصب عليها وابلاً من الشتائم .

(هي فتاة غريبة شاذة)

ومع ذلك يتمنى أن .

(أرى وجهها.. أسمع صوتها.. أعرف فيما تفكر.. لكن هيهات.. حتى عيناها، وهما كل ما يظهر منها يجللهما شيء لا يعرف كنهه .)

ومع ذلك لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير فيها .

(رغم قطيع الفتيات اللاتي عرفتهن)

كثيراً ما كان يسأل أمه عنها فهي تحبها، وتجالسها كثيراً .

- من المؤكد أنها قبيحة الوجه .

- ما أجملها !

- من المؤكد أنها فتاة معقدة.. كارهة للحياة.. في حياتها مأساة.

- لماذا أنت مهتم بها هكذا ؟ هل تريد أن تتزوجها ؟

- أنا.. أنا أتزوج هذه.. إنها فتاة غير طبيعية.. أنا أتزوجها !.. مستحيل .

- نعم مستحيل أن تتزوج هي واحداً مثلك .

ترك البيت غاضباً ذهب إلى صديقه سامر، حدثه عنها.. فرح عندما سمع سامر يقول عنها أنها :

- فتاة غريبة.. معقدة...

- أمي تقول عنها : أنها جميلة.. تتمنى لو أن أختي دينا كانت مثلها .

- أختي سوسن لا تحبها.. لا تطيق سماع اسمها .

- عجيبة هذه الحكاية.. أنا أعرف أنهما كانتا زميلتين في كلية واحدة، وكنت أظن أنهما صديقتان .

- لا.. لا.. سوسن تختلف عنها تماماً .

بعد تفكير طويل.. ودراسة متأنية فكر في الزواج بها.. قرر أن يستشير سامر في هذا .

- إنها مخطوبة .

- وكيف عرفت ذلك ؟

- منذ شهرين تقريباً طرأت على عقلي فكرة مجنونة.. عندما فاتحت أباها في خطبتها أخبرني أنها مخطوبة .

- مخطوبة !.. مخطوبة لمن ؟

- إبراهيم حفني.. أتعرفه ؟

(عرفت الآن لماذا سوسن كانت تكرهها)

- نعم أعرفه.. ما الذي جعل هذا المهندس الناجح يفعل هذا ؟

- أنا أتوقع الفشل لهذا الزواج .

- وأنا أيضا إنها فتاة غريبة.. معقدة .

- كان الله في عون من يتزوجها .



١٥

رجل شرقي



جلس في نفس المكان الذي اصطحبها إليــه أول مــرة.. نظــر فــي ســاعته (الساعة الخامسة والنصف.. بقي علـى موعدها نصف ساعة)

في أول مرة جلسا هنا قالت له :

– لقد عرفت قبلك كثيرين.. بعدما عرفتك لا أظن أني سأعرف أحداً بعدك .

– وماضيك ؟

– سيجعلني أتمسك بك أكثر .

– وتجاربك ؟

– علمتني كيف أميز الرجال .

– لكني خائف .

– مم ؟

– من أن أكون مثل غيري .

– يجب أن تتأكد أنك آخر رجل في حياتي .

– مع أنك أول امرأة في حياتي !

مع الأيام كاد أن يصدقها.. ربما صدقها فعلاً.. بالأمس رآها تركب سيارة رجل لا يعرفه.. تأكد أنه ليس آخر الرجال.. اتصل بها وحدد هذا الميعاد .

أخيراً جاءت متهللة كعادتها تفيض حيوية وجمالاً .

قالت باسمة وهي تجلس :

– هل تأخرت عليك ؟

نظرت في ساعتها وتابعت كلامها :

– الساعة السادسة إلا عشر دقائق.. إن لم تتصل بي لاتصلت بك.. اشتقت إليك كثيراً و...

لاحظت أنه لا يتكلم.. لا يبتسم كعادته.. يسلط عينيه عليها وحسب.

– لماذا تنظر إليّ هكذا ؟!.. ماذا بك ؟.. يبدو أنك اشتقت إليّ كثيراً.. الأمس فقط هو الذي فرق بيننا.. لا أخفيك سراً لقد أحسست أن شيئاً ما ينقصني.. أخذت أقرأ خطاباتك مرة ومرة.. ما أعذب كلماتك.. من كثرة قراءتها حفظتها.. أتريدني أن أتلوها عليك.. اسمع : " حبيبتي اكتب إليك ويعلم الله أني لم أكتب لسواك.. حبيبتي اكتب إليك بيد لا تقوى على الإمساك بالقلم، وكل جسدي يرتجف... "

صاح حامد مقاطعاً :

– كفى خداعاً وكذباً

التفتت أنظار الجالسين إليه، أما عبير فتجمدت في مكانها.. أخرستها المفاجأة.. فلم تنطق بكلمة.. عندما أفاقت، لم تجده.. حاولت أن تتذكر ما حدث لكنها لم تصدق ما تذكرته.. لم تصدق أن حامداً الفارس الذي أنقذها من الذئاب، يلقي بها للكلاب.. لم تصدق أن حامداً العطوف الحنون الرقيق يفعل هذا.. ولماذا ؟

اتصلت به لم تجده في البيت.. إنها على استعداد أن تدفع حياتها من أجل أن تعرف حل هذا اللغز البغيض.. مرت بذاكرتها كل الأيام منذ عرفته.. لم تجد فيها شيئاً يستأهل ما حدث.. لا تدري كيف وصلت للبيت.. رفعت سماعة التليفون وضربت الرقم .

- حامد.. أنا عبير ماذا حدث ؟

- عبير من ؟!

- عبير.. عبير حبيبتك !

- أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.. الرقم خطأ .

وضع السماعة.. لا تكاد تصدق ما تسمع .

- (ربما الرقم خطأ حقاً.. أجرب مرة ثانية.. لا.. أذهب إليه لأعرف الحكاية كلها)

كان سائق السيارة التي ركبتها يذيع بعض الأغاني العاطفية.. طلبت منه إغلاق المذياع، ورجته أن يزيد السرعة .

صعدت بسرعة.. ضغطت الجرس وهي تلهث.. فتح الباب.. قالت بصوت متهدج وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

- حامد ماذا حدث ؟.. أكاد أجن .

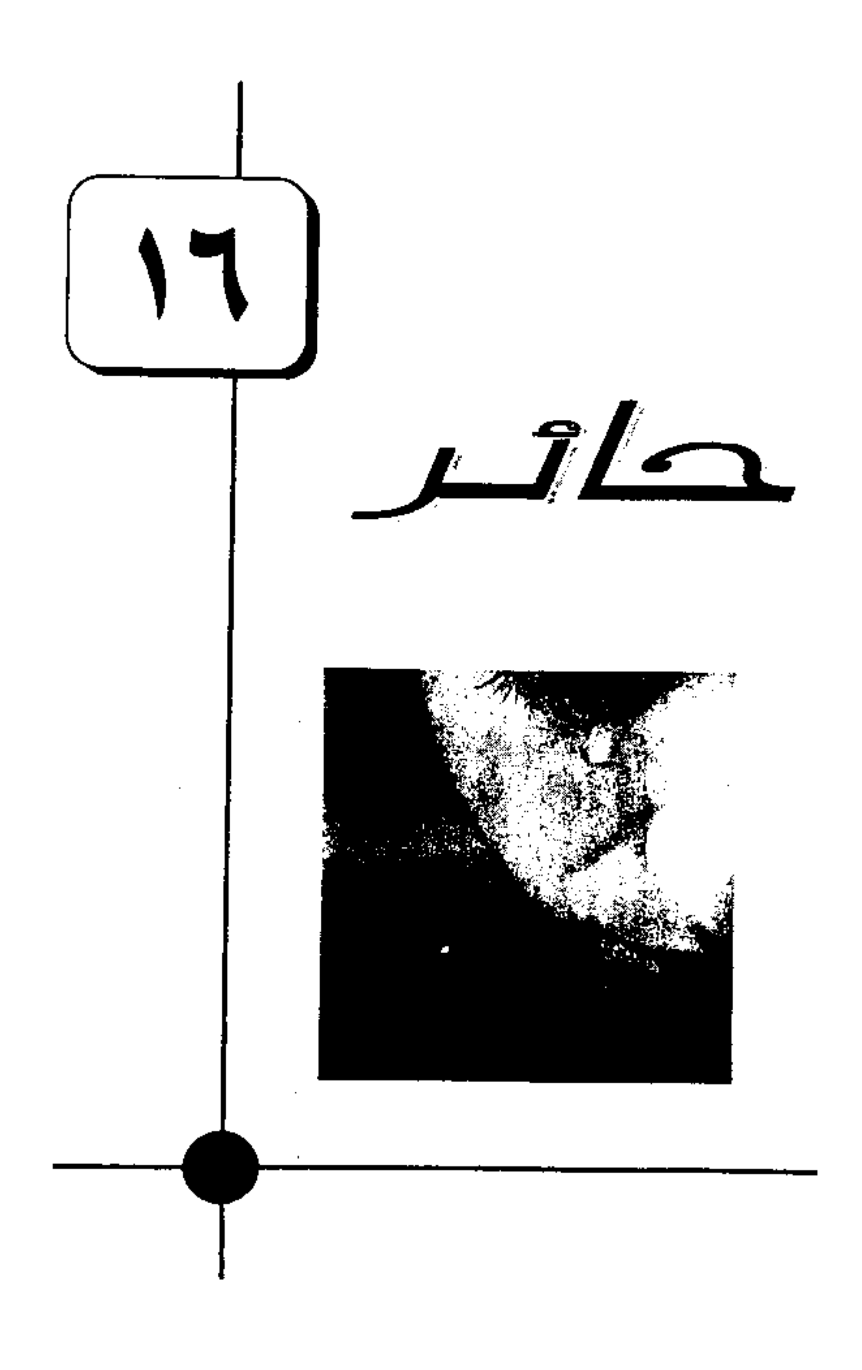
- حامد ليس موجوداً .

وأغلق الباب.. نظرت إلى رقم الشقة لتتأكد من أنها لم تخطئها.. هي رقم ١٢.. همت أن تضغط الجرس مرة ثانية.. تراجعت.. أخذت تتعكز على إفريز السلم.. بدأت تهبط.. تهبط حتى وصلت إلى الشارع .



١٦

حائر



مازالت تنظر إليه.. مازالت تنتظر الجواب.. عيناها واسعتان جميلتان.. لكنهما حزينتان حائرتان .

(كانت عينا حبيبتي واسعتين مثلهما.. لكنهما كانتا قاسيتين.. عجيب هذا الزمان.. عينان تطلبان مني الجواب، وعينان ضنتا عليَّ بالجواب .)

مازالت عيناها تنتظران .

- لابد أن ترحم دموعها.

- من رحم دموعي أنا ؟.. واحدة مثلها يوما بكيتُ من أجلها فلم تتحرك من أجلي .

- لِمَ لا تستمع إليها ؟.. تستمع إليها فقط.. لن أتخسر شيئاً .

- لم تكن ستخسر شيئاً لو استمعت إليَّ .

- في إصغائك إليها حياتها .

- كنت أتمنى أن تسمعني ولو لدقيقة واحدة، وتفعل ما تشاء بعد ذلك.. يومها كدتُ أجن.. هذا العمل الذي لن يكلفها شيئاً علىَ الإطلاق كان يساوي كل حياتي.. هل حياتي لا تساوي لحظة إصغاء ؟!

يومها أقسمتَ ألا تحطم قلباً أحبك، فلماذا تريد الآن أن تحطم هذا القلب الرقيق أحبك ؟

– فتاة مثلها ضنت عليَّ بدقيقة من وقتها.. وقتها الذي كانت تقضي معظمه في الثرثرة مع غيري.. ماتت كلمات الحب على لساني.. أحرقت الآهات أحشائي .

– هذا ما يجعلك تشفق على هذه الفتاة الرحيمة .

– أذكر أني ظللت عاماً كاملاً.. عاماً كاملاً، بهجيره، وصقيعه، وخماسينه.. عاماً كاملاً بلا حياة.. بلا بسمة.. أذكر وكيف أنسى ؟ وإن نسيت فهل تنسى عيوني البكاء ؟.. هل ينسى قلبي الجراح ؟

– هل تريد لفتاة أحبتك أن تتعذب كما تعذبت ؟

– يا من تناشدني الرحمة لقد ظللت عاماً كاملاً.. عاماً كاملاً ما سرتُ في طريق.. ما فتحت كتاباً.. ما رأيت فتاة إلا وتذكرتها، وما تذكرتها إلا وانقبض قلبي.. وصعدت المرارة إلى حلقي.. وسالت دموعي الحارقات من عيني .

– هل تريد الفتاة التي أحبتك أن تبكي مثلما بكيت ؟

– أذكر أنني أقسمت – وتشهد دموعي – لأحطمن كل القلوب .

– يالك من ظالم.. تعاقب فتاة بذنب غيرها .

– لماذا أتحمل وحدي الشقاء ؟.. لماذا عليَّ أن أكون قارب النجاة ؟!.. فتاة مثلها ألقت بي في اليم، وكل من حولي يضحكون.. يضحكون على

المجنون الذي أراد أن يمسك بنجمة السماء.. ابن الحطاب الذي أحب ابنة السلطان.. لم يمد لي أحد منهم يداً حتى قذفني اليم بالعراء .

- وكافأك القدر بحواء أخرى ارتدت رداء أحزانك القديم، الذي خلعته، وتتوسل نظراتها أن ترحمها، وتصغي لها، لقد أقسمتَ يوماً ألا تحطم قلباً أحبك .

- ولكن أقسمت بعد ذلك أن أحطم كل القلوب .

- أنت ظالم .

- بل مظلوم .

- لو كنت مظلوماً حقاً لأشفقت على المظلومين مثلك.. لأشفقت على هذه الفتاة .

- لا أستطيع إنها تذكرني بضعفي، وعجزي.. أنا أريد فتاة مثل حبيبتي لأنتقم منها لا فتاة مثلي لأرحمها .

- أنت تريد الانتقام .

- أنا أريد أن أنسى العذاب .

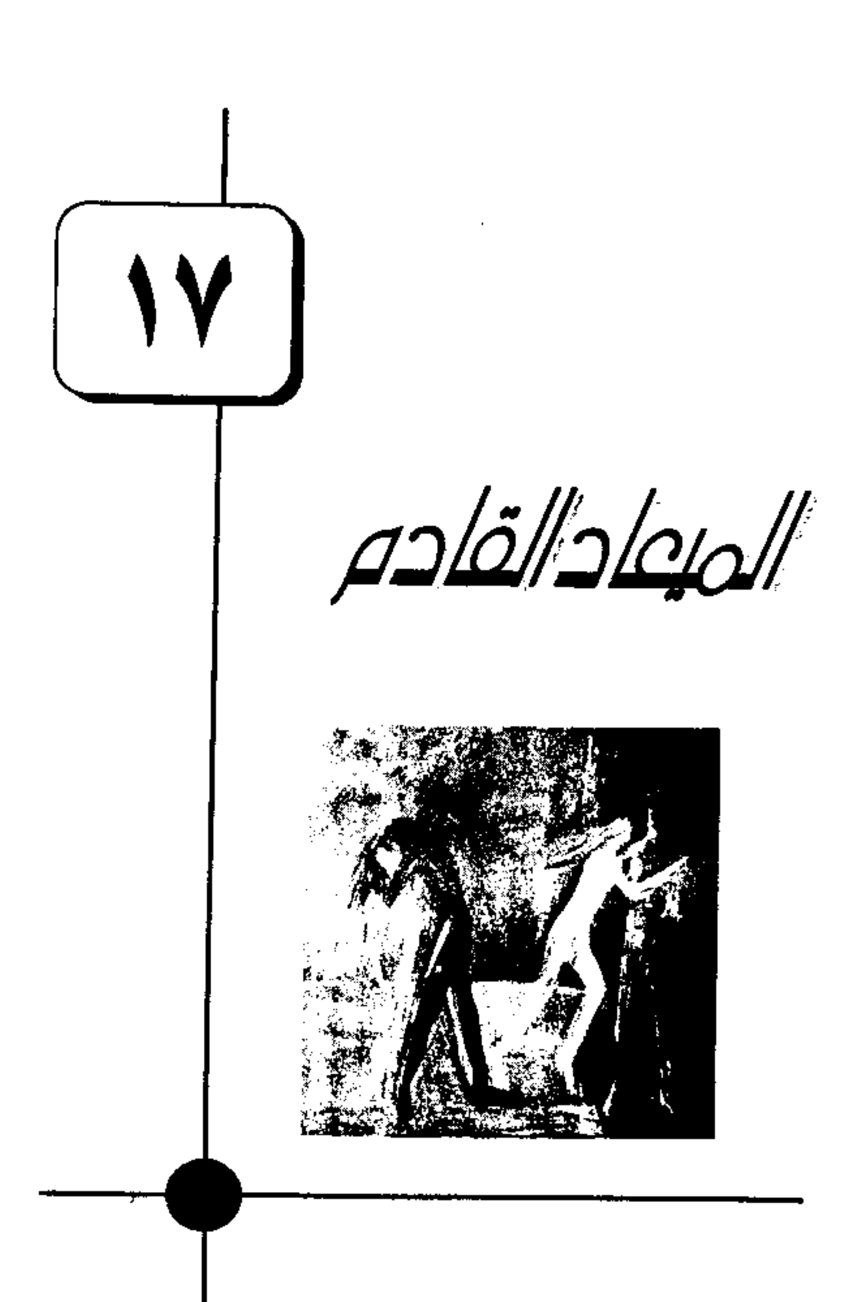
- وماذا تصنع مع هذه الفتاة ؟

- لا أعرف أنا حائر.. حائر .



١٧

الميعاد القادم



جلس حمدي في نفس المكان الذي تعود أن يجلس فيه.. في هذا المكان يجد نفسه.. في هذا المكان يحس بالراحة.. ينسى همومه.. يفكر بصوت مسموع.. على هذا الكرسي كم حلم وهو مستيقظ !.. كم تغنى !.. كم.. كم.. لا يتصور أن يكون هناك صديق مثل محسن .

(صديق يعرف ما أريد أن قوله قبل أن أقوله)

أحياناً يجلس معه ساعة.. ساعتين.. ليلة دون أن يتكلم.. دون أن يثقل عليه محسن بالكلام.. ثم ينصرف .

(كان يفهمني.. يعرف طبيعتي الخاصة.. ربما لأن له هو نفسه له طبيعة خاصة مثلي.. اليوم أتألم كما لم أتألم من قبل.. لا أستطيع التصريح ولا حتى التلميح) .

لم يتكلم منذ جلس.. كالعادة لم يثقل عليه محسن بالسؤال..

- (ربما يفكر في قصة جديدة)

(ليته يسألني اليوم عن سكوتي.. اليوم فقط.. اليوم فقط ليته يكسر القاعدة)

انتظر حمدي وانتظر ولا كلام.. بدأ يحس بالبرد.. البرد ضيف جديد على هذا المكان .

أشار بأصبعه قام محسن ليصنع له الشاي الذي يحبه .

(معقول أن يكون هناك من يحبني مثل محسن ؟!.. من يفهمني مثله ؟!.. من يخلص لي مثله ؟!.. إشارتي له كلام وإيماءتي له رسائل.. كثيراً ما تحدثني نفسي بشيء فإذا به يقوم فيلبيه.. يدير مؤشر المذياع أو يسكته.. يفتح الشباك أو يغلقه.. يأتي بطعام.. يرتدي ملابسه لنخرج.. تراه اليوم يعرف ما أتيت من أجله.. تراه اليوم يفهم سكوتي.. يدرك حيرتي وعذابي.. ليته يعرف)

لم يكن يتصور أنه سيواجه محسن يوماً.. لأول مرة يخفي عنه أسراره.. لأول مرة يخاف كلامه.. كانا كثيراً ما يتناقشان، ويتجادلان وفي وسط الجدال المحتدم يسكت أحدهما ويبتسم ويقول للآخر : " أنت على حق " .

– (تحدثنا عن كل شيء.. كل شيء.. بدءاً من العقائد ووصولاً للبغايا.. كنا نتفق ونختلف وتمر الساعات سريعة.. يغلبنا النعاس ؛ فننام.. نستيقظ أول شيء نقوله : "متى سنلتقي ؟".. يا ترى هل سنختلف اليوم ؟.. هل سيسكت أحدنا في وسط الجدال ويبتسم ؟.. هل سنتواعد قبل أن نفترق ؟.. أخشى المواجهة.. ولا أستطيع الهروب)

فمع محسن لا يستطيع أن يخفي سرا.. أحيانا يكون هناك شيء يريد أن يخفيه عنه. ويظل طوال الوقت الذي يسبق معاده معه يذكر نفسه بهذا وعندما يلقاه أول شيء يحدثه فيه هو ما عقد العزم على إخفائه .

الشاي يا سعادة الباشا .

وانحنى محسن وهو يقول هذا.. لم يبتسم حمدي كعادته في مثل هذه الدعابات ! بل أخذ فنجان الشاي، وقام ليجلس على الأريكة المواجهة لمحسن.. شيء عجيب لم يحدث من قبل .

– أطفأ النور .

قال محسن وهو في طريقه لإطفاء النور :

– لو كانت القصة التي تكتبها سخيفة سأحطم رأسك .

لم يعقب حمدي، ولم يبتسم .

(ليتني أستطيع أن أبكي كلمات.. ليتني أستطيع أن أنزف عبارات.. ليتني أستطيع أن أكتب قصة.. ما أحوجني الآن إلى قصة أختبئ وراءها)

بدأ حمدي يرشف الشاي ببطء، وبعد رشفة طويلة قال والقشعريرة تزلزل جسده :

هل تعرف ليلى صلاح ؟

سؤال غريب .

ليلى حبيبتك.. مالها ؟.. هل رأيتها اليوم ؟

قال حمدي بصوت جاد :

هل كنت تعرفها من قبل ؟

أجاب محسن بسرعة :

نعم أعرفها.. سؤال غريب..

قاطعه حمدي :

أقصد هل عرفتها قبل أن أحدثك عنها ؟

علم محسن أن الموضوع مهم فسكت خوفاً من أن يتورط في إجابة سريعة.. فأكمل حمدي :

هل عرفتها قبلي ؟

نعم .

ولماذا لم تخبرني ؟!

لم أكن أعرف أن هذا الموضوع يهمك .

ما هي الحكاية بالضبط ؟

ماذا حدث ؟.. من قال لك هذا الموضوع القديم الذي أنا نفسي نسيته ؟

أرجوك يا محسن أن تحكي لي كل شيء عن الموضوع .

لم يكن هناك موضوع.. فقط كنت معجباً بها في فترة ما، وانتهى الموضوع .

هل كتبت لها خطابات ؟

هل قالت لك هذا ؟

أنا أسألك أنت.. هل كتبت لها خطابات ؟

نعم .

هل ردت عليك ؟

لا.. أخذتها فقط، واعتذرت...

وماذا ؟

اعتذرت عن الرد وانتهى الموضوع عند هذا الحد .

كم خطاباً ؟

حوالي خمسة أو ستة.. لا أذكر .

متى حدث هذا ؟

تقريباً.. تقريباً...

أرجوك.. حدد بالضبط .

لا أذكر على وجه التحديد.. إنما كان ذلك منذ أربع سنوات.. قبل أن تتوطد صلتي بك .

كم مرة كلمتها ؟.. أين ؟.. متى ؟.. ماذا قالت لك ؟

يا حمدي هذا موضوع قديم.. نسيته.. كان قبل أن تعرفها أنت .

لماذا تركتها ؟

كان حب مراهقة وانتهى.. هذا ما حدث بالضبط سل ليلى إن شئت.

(لم تقل لي ليلى أنها أخذت منه خطابات.. لم تقل لي إنها كانت تقابله.. تتحدث معه.. من أصدق ؟)

صدقني هذا ما حدث.. أتريد أن أقسم لك على هذا ؟ .. هل قالت ليلى شيئاً غير هذا ؟.. ماذا قالت لك ؟.. تكلم يا حمدي دعك من هذا السكوت البليد.. ما الموضوع بالضبط.. إن كنت تمزح فدعك من هذا المزاح السخيف.. وإن كنت جاداً فقل لي الحكاية .

(لماذا هو منفعل هكذا ؟.. لو كان حقاً ما يقول لما انفعل بهذا الشكل.. لأول مرة لا يستطيع أن يفرق بين جدي وهزلي.. ماذا أقول له ؟.. أقول له أني أمزح.. لن يصدقني.. أحكي له ما قالته ليلى.. سيكذبها.. وحتى لو صدقها فليس هذا دليلاً على صدقهما.. لو أخبرني هو أولاً بهذا الموضوع لما حدث شيء.. إنما تقوله لي ليلى لتثبت إخلاصها لي، ويسكت محسن عنه ليثبت إخلاصه لي.. ماذا عليَّ أن أفعل لأثبت إخلاصي لهما ؟)

هل غضبت مني عندما عرفت ؟.. المفروض أن..

المفروض ماذا ؟

لا شيء .

(المفروض أن أفرح لأنه تركها لي عندما عرف أني أحبها)

لو كنت أعلم حبك لها ما أحببتها .

ماذا تقول يا حمدي ؟!.. أنا لا أحبها.. الموضوع انتهى .

سأترك لها القرار .

قرار ماذا ؟.. هل جننت.. أنا..أنا...

(لو أخبرني من البداية ما ترددت لحظه في تركها)

محسن.. سأسألك سؤالاً وأجبني عليه بصدق، بالصدق الذي

أنا أعرف ماذا تريد.. نعم أحبها.. لكنك قلت لي أنها تحبك.

(" لكنك قلت لي أنها تحبك.. قلت لي " عرفت الآن لماذا كان يسألني كثيراً.. هل هي تحبك ؟.. هل أنت متأكد من حبها لك ؟.. هل صارحتك بهذا ؟.. ربما هي معجبة بك فقط.. أو أنها... عرفت الآن لماذا كان في البداية يسألني كثيراً عنها، ويهتم بسماع ما قالته بالضبط ويكرره ورائي.. عرفت الآن لماذا بدأ بعد ذلك يضيق بحديثي عنها.. ليالي الشتاء الدافئة.. نسمات الصيف اللطيفة يتصارعان.. الصديق الحكيم.. والملاك الرحيم يتصارعان، أبو زيد الهلالي فارس الحق.. وست الحسن ذات الجمال يتصارعان)

يا حمدي.. لا تشغل بالك.. هي تحبك، وأنت تحبها.. والموضوع بالنسبة لي لا يعدو أن يكون حباً فاشلاً.. ولست أول من فشل في حبه.. ولن أكون آخرهم .

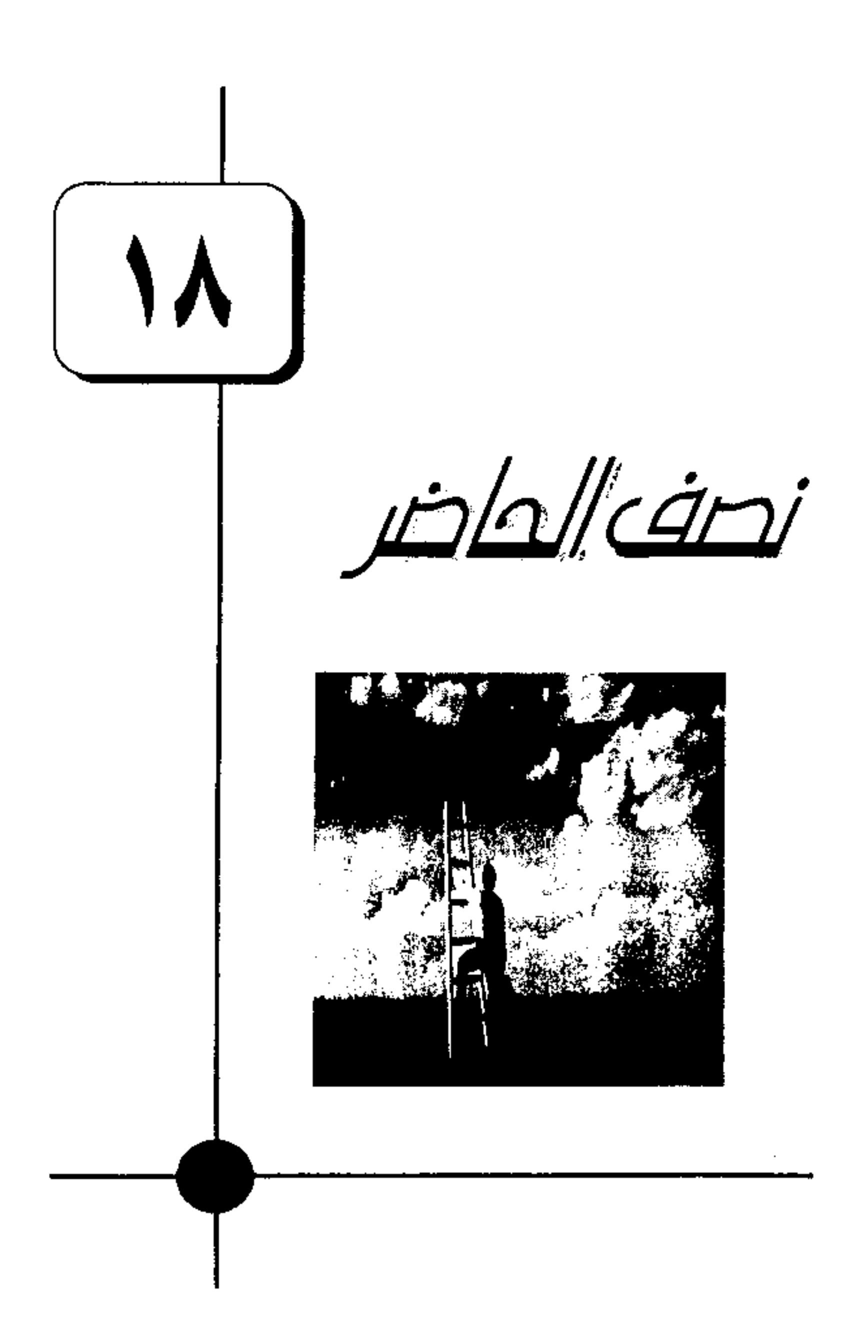
(كلامه يحيرني أكثر.. لو تمسك بها لاستطعت أن أتخذ قراراً..
لكن المنافس ليس قرصانا بل فارس نبيل)

بدأت أشعة الشمس تقتحم الحجرة تصارع الظلام.. تبدد السكات.. لم ينم الصديقان.. ظل كل واحد في موضعه لم يبرحه.. عندما وقعت عينا حمدي على محسن هبَّ واقفاً.. غادر البيت على الفور دون أن يتفقا على الميعاد القادم .



١٨

نصف الحاضر



جلس خليل على الكرسي الذي مل الجلوس عليه.. وقع بصره على لوحة لمنظر غابة كثيرة الأشجار والأزهار.. علقها أخوه في هذا المكان بالأمس.. تعلقت عيناه باللوحة .

(أه.. لو هاجرت إلى مكان بعيد.. ليس فيه حارات ضيقة قذرة تلعب فيها الأطفال، وتتشاجر النساء من شرفات بيوتها.. مكان أنعم فيه بالهدوء.. وأشم رائحة غير رائحة القمامة.. مكان تظلله أوراق العنب.. تكسو أرضه الحشائش الخضراء.. تزينه الورود والرياحين.. سيكون مكاناً جميلاً.. ترى من أصطحب معي ؟.. أنا أكره الوحدة.. اصطحب معي حبيبتي صفاء.. لكن صفاء تزوجت.. انتظرت.. انتظرت .. أخيرا تزوجت.. صفاء لم تعد زهرة ندية.. صفاء أصبحت سيدة متزوجة.. تذهب للسوق.. تحمل حقيبة الخضراوات التي تتدلى منها عيدان الملوخية.. تفوح منها رائحة البصل.. تتساقط منها قطرات من عصير الطماطم.. تحمل الحقيبة بيد، وتحمل طفلها باليد الأخرى.. رأيتها مرة تتشاجر مع بائع الطماطم بسبب الأسعار.. صفاء لم تعد زهرة ندية صفاء.. لا تصلح.. من إذن من الفتيات ؟.. من ؟.. لا أعرف.. هل من الضروري أن أصطحب فتاة.. نفكر في موضوع آخر ونترك موضوع الفتيات جانباً الآن.. سأصطحب معي علاء.. هذا خير الأصدقاء.. لكن علاء مدمن كرة قدم، ولن يوافق على السفر معي.. حتى لو وافق ففريق المنطقة لن

يسمح له بالسفر فدوري المناطق على الأبواب .. اصطحب معي مصطفى.. مصطفى في "البكالوريوس" هذا العام، وهو حريص على الحصول عليه كأنه مفتاح الجنة.. في يوم من الأيام سيعرف أن هذا المفتاح لا يفتح حتى علبة سردين، ومع الجرائد القديمة سيضعه ويبيعه لبائعة "الطعمية" لتمنحه واحدة أو اثنين منها على حسب التقدير، وربما تضن بها عليه لأن دوره لم يأت بعد.. سأترك مصطفى هنا ليقتنع بصحة كلامي عن الشهادة.. سأصطحب معي محمد عبد السلام.. شاب ظريف.. وسيم.. مسلٍ.. محمد عبد السلام له دور مهم هذه الأيام ؛ فهو يساهم في رفع الروح المعنوية لفتيات الحي.. كلماته الجميلة الشيء الوحيد التي تسمعه فتيات الحي بعد أن بارت سلعتهن بسبب البطالة.. ارتفاع الأسعار.. المغالاة في المهور.. والشهادة لله فإن محمد عبد السلام يبذل مجهوداً كبيراً في عمله هذا.. ونظراً لكثرة الأعداد فإنه اضطر إلى القيام بعمل إضافي.. محمد عبد السلام يجب أن يبقى هنا.. أصطحب معي أحمد سلاَّم ؛ إنه يحب العزلة والهدوء، وغير مرتبط بعمل فهو يحمل شهادة العاطلين دفعة ٨٤.. كيف اصطحب أحمد سلام وهو واجهة الحي ؟ فهو المثقف الوحيد فيه.. من سيحل لنا مشاكل الشباب والمراهقين والعاطلين ؟.. إنه الطبيب النفسي لحيِّنا المريض.. الطبيب الذي لا تستعصي عليه حالة.. الشيء الوحيد الذي أتعجب له.. كيف حتى الآن لم يستطع حل مشكلة البطالة التي أصبح نقيباً لها ؟!!.. من إذن اصطحب معي.. آه أصطحب معي الشيخ عبد الحميد.. شاب تقي صالح لا أراه إلا غادياً أو رائحاً إلى المسجد.. الشيخ عبد الحميد لا يصلح ؛ فهو الذي يعمر مسجد الحي.. مَن

للمسجد بعده ؟!.. كما أنه لن يقبل فلو حدثته في موضوع الهجرة لانطلق فيك على الفور " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وخير لك أن تخالط الناس وتصبر على أذاهم من هجرتهم فهذا تخل عن واجبك الحقيقي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهذه الجموع الغارقة في المعاصي والآثام ".. الشيخ عبد الحميد لن يرضى، وأنا لن أرضى أن أحرم حيًّا من هذا الشاب الصالح لعل الله يرفع عنا بدعائه البلاء.. يبدو أن كل الشباب لا يصلحون.. نعود للفتيات.. ما رأيك في عبلة ؟.. فتاة طيبة ومؤدبة.. لن توافق ؛ ستقول لك إذا أردت شيئاً أطلبه من أبي.. أنا لا أعرف شيئاً.. الكلمة كلمة أبي، وستترك وتمضي.. آه أصطحب لبنى فهي لن تمانع أن تذهب معي – أو مع غيري – إلى آخر الدنيا.. لكن)

انتبه خليل على صوت الباب يفتح ويغلق.. كانت أمه تحمل الخضراوات.. زعقت فيه ليحمل عنها الأكياس الثقيلة.. أخذت تحكي له عن السوق، وعن جشع التجار والباعة.. عن الطماطم التي ارتفعت أسعارها فجأة، والثوم الذي اختفى من السوق.. عن المعلم سيد الذي تشاجر مع أحد الزبائن...

نظر خليل في الساعة فإذا هي الثانية عشرة والربع (آه.. التليفزيون بدأ إرساله)

جرى خليل بسرعة.. أدار التليفزيون.. جلس يشاهد برامج الأطفال، وبرامج المرأة .

١٩

عندما يبكي التمثال



دخلت فتاة جميلة العيادة بُهر الطبيب الشاب بحسنها عندما رآها .

(هل يمكن أن يكون عند هذا الجمال مشاكل نفسية.. مستحيل)

- أين أجلس ؟

- استريحي هنا .

استرخت على الأريكة .

- الحكاية أن...

- لا تتحدثي إلا بعد أن تهدئي تماماً .

مازال الطبيب في حيرته .

(كل هذا الجمال.. إنها أجمل ما رأت عيني) .

- مشكلتي يا دكتور أني لا أجد من يسمعني.. من يفهمني .

- فتاة مثلك تشكو من الوحدة.. لا أصدق .

- هذه هي الحقيقة لقد كُتب علي أن استمع، ولم يسمح لي بالكلام .

- كيف ؟!

- كل من عرفتهم كانوا لا يتحدثون إلا عن أنفسهم أو يتحدثون عني.. عن وجهي الذي يشبه القمر.. عن عيني الساحرتين.. عن كذا.. عن

كذا . في البداية كنت أسعد بذلك الغزل.. أشعر أني محظوظة بهذا الجمال الذي يأسر كل من يراه.. في البيت.. في الطريق.. في المدرسة.. في الجامعة.. في وسائل المواصلات.. في أي مكان كان الناس يتابعوني بعيون نهمة.. كنت سعيدة.. بكلمات الغزل بنظرات الإعجاب، لكن أحداً منهم لم يسألني رأي في أي موضوع مهم، أو يستشيرني في أمر جاد.. لم يسألني أحد عن أفكاري وآرائي.. بدأت أضيق بهذه النظرات الجائعة، والكلمات المنمقة.. بدأت أشعر أني تمثال من المرمر.. تمثال جميل نعم، لكنه تمثال.. هذا ما يراه الناس.. حتى أقرب المقربين مني.. أمي لا ترى فيَّ منذ ولدت غير الجمال.. هي التي علمتني كيف أحفظ عليه.. عندما كبرت.

وعند هذا الحد بدأت عيناها تمتلئان بالدموع .

- هذه أول مرة أبكي.. لم يكن ينتظر مني إلا الضحك والابتسام.. لم يكن يسمح لي بالبكاء.. ألم أقل لك أني تمثال.. هل رأيت تمثالا يبكي ؟!

قالت الجملة الأخيرة بصوت عالٍ أقرب إلى الصراخ . وأكملت

- بدأت أشعر بنظرات الإعجاب سهاماً تطعن إنسانيتي.. أصبحت قصائد الغزل لهيباً يحرق آدميتي.. عندما كنت أحاول أن أكون إنسانة.. أن أكون شيئاً غير التمثال ألمح في عيونهم الشك والريبة.. لقد عرفوني تمثالاً.. فهل للتمثال مشاعر ؟.. هل للتمثال مشاكل ؟.. هل التمثال يبكي ؟.. التمثال دائماً جميل، وهذا سر إعجاب الناس به.. لو بكى ما التفت إلى دموعه أحد.. كانت هناك عيون ودت لو هشمت رأسي.. لو حطمت هذا

التمثال حتى لا يفتتن الناس به.. صدقني كان هؤلاء أهون علي ممن فتنوا بي .. أحياناً كنت أتمنى لو يهشم رأسي أحدهم حتى أستريح من هذه الحياة.. بدأ القلق يتسرب إلى أحلامي أيضاً.. أرى حلماً يتكرر كل يوم حتى أني أصبحت أخشى النوم حتى لا أراه.. أرى أني أجري في صحراء واسعة، وتجري ورائي كلاب كثيرة، يتقدمها كلب كبير يحاول الإمساك بي، وأنا أجري.. أجري على غير هدى، وهو لا يكف عن ملاحقتي.. كذلك أحلم أن قططاً كثيرة تحاول أن تنشب أظافرها الطويلة في وجهي.. أرجوك يا دكتور، قل ماذا أفعل أرجوك ؟

تنبه الدكتور الشاب على رجائها .

- ماذا تقولين ؟

- أرجوك أخبرني ماذا أصنع ؟ وما تفسير هذه الأحلام ؟

قال الطبيب وهو يبتسم ابتسامة عذبة :

- الجلسة الواحدة لا تكفي، أتمنى أن أراك ثانية .



كتب للمؤلف

(أ) كتب مطبوعة

١ – ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية . مكتبة مدبولي

٢ – الدين والسياسة والنبوءة . دار الكتاب العربي

سلسلة كتب دروس سياسية من التجربة الناصرية

١ – آخر أيام فاروق وأول أيام الثورة . دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

٢ – العامان المجهولان في تاريخ ثورة يوليو ــــــــــــ

٣ – إنجازات عبد الناصر الكبرى من منظور سياسي ــــــــــــ

٤ – نظام عبد الناصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي ــــــــــــ

٥ – أمريكا وعبد الناصر من التحالف للعقاب ــــــــــــ

٦ – هزيمة يونيو ٦٧ وتحديد المسئولية ــــــــــــ

سلسلة نحو فهم صحيح للصراع العربي الإسرائيلي

١ – اليهود والصليبيون الجدد . دار الإبداع للصحافة والنشر

٢ – اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة) ــــــــــــ

٣ – هذه استراتيجيتهم، فماذا نحن فاعلون ؟ ــــــــــــ

٤ – إسرائيل وحزب الله ولبنان، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن ــــــــــــ

٥ – فتح وحماس، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة ــــــــــــ

٦- اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية ـــــــــــ

المؤلفات الأدبية

١- مهاجرون . (قصص قصيرة) زهور المعرفة والبركة

٢- الحرف التاسع والعشرون . (قصص قصيرة) ـــــــــــ

٣- ليت قومي يعلمون . (قصص قصيرة) ـــــــــــ

(ب) كتب تحت الطبع

١- دروس سياسية من ثورة يوليو لثورة يناير

٢- الخلاص الإلهي في آخر الزمان بين الدين والسياسة .

٣- الطبيعة العربية والصهيونية، الزعامات المزعومة والسياسات المدروسة .

٤- معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية .

٥- رؤية إسلامية للحضارة المصرية القديمة .

- يؤمن المؤلف بأنه لن يُجدِّد شباب الأمة العربية والإسلامية إلا الإيمان الصادق، والفكر المستنير، والعمل المخلص، وفقه الواقع، وأنه ليس أضر عليها من النفاق، وجمود الفكر، والتواكل، والجهل بالواقع .

التليفون المحمول : ٠١٢٢٦٤٠٦٤٨٩

البريد الالكتروني : yuness112@hotmail.com

موقع المؤلف على الإنترنت www.albab.hooxs.com

***

محتوى الكتاب

رقم الإيداع
٢٠١١ / ١٤٢٣٣